الطبعة الثانية

سنان أنطون





يا مريم

جائزة البوكر العربية

القائمة القصيرة ـ 2013

منشورات الجمل

رواية

سنان أنطون

يا مريم

رواية



منشورات الجمل

سنان انطون: **يا مريم**، رواية

سنان أنطون: شاعر وروائي ومترجم وُلد في بغداد عام ١٩٦٧. له روايتان «**إعجام**» و «**وحدها شجرة الرمان**» وديوان شعر بعنوان «**ليل واحد في كل المدن**» والعديد من المقالات بالعربية والإنكليزية. تُرجمت كتاباته إلى الإنكليزية والألمانية والإيطالية والنرويجية والبرتغالية. عاد إلى العراق عام ٢٠٠٣ ليشارك في إخراج فيلم وثائقي بعنوان «حول بغداد» عام ٢٠٠٤ عن العراق بعد الدكتاتورية والاحتلال. ترجم أشعار محمود درويش وسركون بولص وسعدي يوسف وغيرهم إلى الإنكليزية. نشرت ترجمته لكتاب «**في حضرة الغياب**» لمحمود درويش باللغة الإنكليزية عام ٢٠١١ عن دار آرشيبيلاغو. يعمل أستاذاً للأدب العربي في جامعة نيويورك منذ عام ٢٠٠٥.

سنان أنطون: **يا مريم**، رواية، الطبعة الأولى

تلفون وفاكس: ٠٠٩٦١ ١ ٣٥٢٣٠٤
ص.ب: ١١٣/٥٤٣٨ ـ بيروت ـ لبنان

Postfach 1127 . 71687 Freiberg a. N. - Germany
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

«جاءَ إلى بيْتِهِ، فما قَبِلَهُ أهلُ بيْتِهِ»

إنجيل يوحَنّا ١١ : ١

أن تعيش في الماضي

١

«إنت عَيّش بالماضي عمّو!»

قالتها مها لي بعصبيّة وهي تترك غرفة الجلوس بعد جدالنا الحاد. ارتبك لؤي، زوجها، واحمرّ وجهه وهو يناديها بصوت عالٍ طالباً منها أن تعود: «هاي وين مها؟ تعالي! مها!»

لكنها كانت قد بدأت ترتقي بسرعة الدرج المفضي إلى الطابق العلوي. اعتذر مني وهو ينظر بعينين حزينتين وقال بصوت بلّله الخجل:

«سامِحها عَمّو. إنْتَ تُعْرُف هيّ شْقَدْ تْحِبَّك وتحتِرْمَك. بَسْ مو بيدها، أعصابها كِلِّش تعبانة.»

قبل أن أفكّر بما يمكن أن أقوله، أخذ صوت نشيجها المتقطّع ينهمر على أسماعنا من الطابق العلوي. فتمتمتُ:

«مو مُشكلة. ما صار شيْ. ياللّه، روح هدّي أعصابها وطيِّبْ من خاطرها»

نهض زوجها من الكنبة الرمادية التي كانا يجلسان عليها واقترب من كرسيّ الذي كان أمام التلفزيون مباشرة. انحنى ليقبّل رأسي وهو يضع راحته على كتفي قائلاً: «إلعفو، واحسِبْها عليّ» قبل أن يتركني ويرتقي الدرج بهدوء إلى الطابق العلوي.

بقيتُ جالساً لوحدي أمام شاشة التلفزيون التي تلاطمت في قلبها أصوات المذيع وضيفيه في جدال صاخب. لكنّي لم أعد أسمع أصواتهم بوضوح. وجوههم أصبحت ضبابية وكادت تتلاشى. كنت أسمع جملة واحدة تتردد كلماتها ببطء داخل رأسي:

«إنت عيِّش بالماضي.»

٢

لم أنم جيّداً وبقيتُ أتقلّب في الظلام وأنا أقلّب الحكم الجائر الذي أصدرته مها بحقي. كرّرتُ السؤال على نفسي بصمت: هل أعيش، حقّاً، في الماضي؟ وكنت أجيب عليه بأسئلة أخرى. كيف لا يعيش من كان بعمري، في الماضي، ولو بعض الشيء؟ أنا في العقد الثامن من عمر صار معظمه في عداد الماضي ولم يبق منه الكثير. أما هي، فما زالت في بدايات العشرينيّات وما زال المستقبل كله أمامها، مهما بدا الحاضر قاتماً. قلبها طيّب، ونواياها أطيب، ولكنها لم تزل صغيرة، مثل ماضيها. وسيأتي اليوم الذي يكبر فيه ماضيها، فتبدأ هي الأخرى بزيارته وبتمضية ساعاتها في ربوعه، حتى لو كان بائساً. لأنها ستنتقي منه أحلاه وستندمل جراحها. ثم هل مات الماضي أساساً كي لا أعيش فيه؟ أليس الماضي مستمرّاً وحيّاً بشكل ما، يتعايش مع الحاضر ويحترب معه؟ أم أنّه محبوس في الصور المؤطرة المعلّقة على جدران الذاكرة التي تمتد آلاف الأمتار، وتلك المعلّقة على جدران البيت والمحفوظة في الألبومات؟ ألم تقف هي طويلاً أمام الصور المعلّقة وتسألني أكثر من مرّة عمّن يقف داخل أطرها من أفراد العائلة؟ وإلى أين أخذتهم الحياة، أو كيف،

ومتى، اختطفهم الموت؟ ألم تطلب مني أن أحكي لها الحكايات التي تختزنها الصور؟ كنت دائماً أستجيب بحماسة وألوّنها بالتفاصيل وأتتبّع الخيوط التي تصلها بصور أخرى أحياناً. أو تلك التي تصلها بحكايات أخرى لم تلتقطها عين الكاميرا. حكايات معلّقة في ذاكرتي بآهات وابتسامات، وأخرى محفوظة في أرشيف يحرسه القلب.

هل أهرب فعلاً من الحاضر إلى ملجأ الماضي، كما اتهمتني هي؟ وما العيب في ذلك، حتى لو كان صحيحاً، إذا كان الحاضر مفخّخاً ومليئاً بالانفجارات والقتل والبشاعة؟ ربما كان الماضي مثل حديقة البيت التي أحبها وأعتني بها كما لو كانت ابنتي. أهرب إليها من ضجيج الدنيا وبشاعتها. إنها فردوسي في قلب الجحيم أو «منطقة الحكم الذاتي» كما أسميها أحياناً. سأدافع عنها لأنها، هي والبيت، آخر ما تبقى لي.

يجب أن أسامحها، فزمانها غير زماني، وشبابها غير شبابي. هي فتحت عينيها الخضراوين على الحروب والحصار وذاقت طعم القحط والقتل والتشرّد مبكّراً. أما أنا فقد عشت أزمنة الخير وما أزال أتذكّرها وأصدّق بأنها حقيقة.

٣

نهضتُ في السادسة والنصف، كعادتي منذ سنين طويلة، بلا منبّه، منذ أصبحت مثانتي أفضل مُنَبّه طبيعي يجبرني على الاستيقاظ وزيارة الحمام أكثر من مرة. وقفتُ أمام المرآة في الحمّام الذي يحاذي غرفتي. غسّلتُ وجهي وحلقتُ ذقني. لم أدندن أغنية من أغانيّ المحببة كما كنت أفعل عادة، لأنني كنت أحاول تذكر تفاصيل

الحلم الذي رأيته. أخرجت طقم أسناني من القدح المليء بالماء وأعدته إلى فمّي وثبّته فيه. تساقطت أسناني منذ سنوات وكنت أنزعج من الطقم لفترة طويلة قبل أن أعتاد عليه. كنت أعزّي النفس ببقاء شعري الأبيض قوياً. كل شيء ولا الصلع. لكنّني كنت أصلع في الحلم. هذا التفصيل المهم بحد ذاته يجعل الحلم أقرب إلى كابوس. كان البيت هو هو، بكل تفاصيله، لكنّه كان قد تحول إلى متحف، وكل غرفة فيه قاعة. الأسرّة والكراسي محاطة بالحبال وعلامات تمنع الزوار من الاقتراب أو اللمس. وكنت أعمل دليلاً أشرح تاريخ كل غرفة، ومن كان يسكن فيها، وإلى أين هاجروا. سمعتُ صوت همهمات وضحك لكن دون أن أرى أحداً. خرجتُ من قاعة إلى أخرى بحثاً عن الزوار لكن القاعات كانت فارغة. ثم سمعتُ صوت رجل آخر ورأيته يمشي في الممر مع مجموعة من الزوار وهو يشرح لهم تفاصيل خاطئة عن البيت. اقتربتُ منهم وهتفتُ بصوت عال: هذا بيتي وأنا الدليل! لكن لا أحد سمعني أو أبه لوجودي. نظرتُ إلى المرآة فرأيت أنّي أصلع.

مشطتُ شعري وحمدتُ اللّه ثانية على احتفاظي بشعري. فتحتُ عينيّ وحدّقتُ فيهما وأنا أقرّب وجهي من المرآة. فارتفع الحاجبان الرماديان الكثيفان قليلاً وضاقت المسافة بين التجاعيد التي كتبها العمر على جبيني. ابتعدت عن المرآة وجفّفتُ وجهي وجبيني مرة أخيرة.

في طريقي من الحمام إلى المطبخ كي أعدّ الشاي، وقفتُ أمام التقويم المعلّق على جدار الممر كما كنت أفعل كل صباح. وهي عادة قديمة لم أقلع عنها حتى بعد أن تقاعدتُ وخَلَتْ أيامي من المواعيد وقلّت مشاغلي وواجباتي. فقد اعتدتُ أن أقف دائماً

لأشطب اليوم الفائت بقلم الرصاص المعلّق بخيط من نفس المسمار الذي يثبّت التقويم على الجدار ويعلن، بذلك، بداية يوم جديد. نظرتُ إلى الصورة الخاصة بالشهر على التقويم: مصطبة خالية وقد جلست عليها، وعلى الأرض الحجرية تحتها، أوراق مصفرّة انتزعها الخريف من شجرة لا يظهر إلا جذعها. تحت الصورة، كان اليوم الباقي هو الأحد، آخر يوم من تشرين الأول من عام ٢٠١٠. كنت قد كتبتُ على المربع الصغير الخاص بذلك اليوم بقلم الرصاص «وفاة حِنّة» إشارة إلى اسم شقيقتي التي فارقت الحياة قبل سبع سنوات في صباح مثل هذا، مع أنني لا يمكن أن أنسى التاريخ. ذهبتُ إلى الكنيسة قبل شهر وطلبتُ من الكاهن تقديم قدّاس عن راحة نفسها في ذكرى وفاتها، وتبرّعتُ للكنيسة بمبلغ إضافي. لن يكون القدّاس في كنيسة الراهبات التي كانت بيتها الثاني والتي صلّت فيها كل صباح، لعقود طويلة، لأنها أغلقت أبوابها أمام المصلّين مؤخراً لأسباب أمنية، بل في كنيسة «أم الطاق» كما كانت تسمّى. الكنيسة التي تذهب إليها مها وزوجها كل أحد، لأنه سرياني. لن تزعل حنّة لأن القداس سيكون في كنيسة السريان وليس في «كنيستنا» كما كانت تسمّي كنائس الكلدان. فالفرق بسيط جداً لا يتعدّى لغة القداس التي تتشابه ويمكن فهم بعض مفرداتها والاثنتان كاثوليكيتان. والأهم هو أن كل الصلوات ستصل إلى اللّه في نهاية الأمر، مهما كانت اللغة أو المذهب.

ها هي سبع سنوات قد مرّت بسرعة منذ ذلك الصباح. سنوات كانت حنّة ستتعجّب منها لو كانت على قيد الحياة، إذ فاقت كل ما سبقها وفاقت حتى الشهور السبعة الأخيرة من حياتها بعد الحرب الأخيرة.

كانت دائماً تصحو قبلي وتعد الشاي لنا. تشرب استكانَيْن مع فطورها البسيط: كسرة خبز وقليل من الجبنة، البيضاء أو الصفراء، إن توفّرت، وملعقة من مربّى المشمش أو التين الذي كانت تحبه وتصنعه هي بيدها. ثم تترك الشاي فوق كتلي الماء على نار هادئة جداً كي لا يبرد، ولأشربه عندما أستيقظ، ثم تذهب إلى الكنيسة مشياً. كان إيقاع مشيها قد أصبح بطيئاً جدّاً في السنوات الأخيرة واضطرّت إلى التأنّي والتوكّؤ على العكّاز. لكنها كانت ترفض أن توقظني لأوصلها بالسيارة وترفض أن تستمع إلى نصائحي لها بأن تذهب إلى الكنيسة مرّة واحدة فقط يوم الأحد، بدلاً من الذهاب كل يوم. كانت عنيدة للغاية، خصوصاً عندما يتعلّق الأمر بطقوسها الدينية.

عندما دخلتُ المطبخ ذلك الصباح لم تكن حنّة قد أعدّت الشاي. كان قوري الشاي مقلوباً في المشبك بجنب المغسلة كما كان في الليلة الماضية بعد أن شربنا الشاي في المساء. قلتُ لنفسي إنها ربّما تكون متوعّكة. صببتُ الماء في الكتلي ووضعته على العين اليمنى في الفرن بعد أن أشعلت نارها بعود ثقاب. وضعت ملعقتين كبيرتين من الشاي في القوري ووضعت قطرات ماء فوقها، ثم غطيته ووضعته فوق الكتلي بانتظار أن يغلي الماء كي أصبّه على الشاي. خرجتُ من المطبخ وذهبتُ باتجاه غرفتها التي كانت في نهاية الممر، قبل الباب المؤدي إلى الحديقة الخلفيّة. كان بابها مغلقاً. ناديتها وأنا أطرق الباب ثلاث مرّات: «حِنّة، حِنّة، يا حِنّة.» لم تجب. أدرتُ مقبض الباب بهدوء وفتحته محاولاً ألا أصدر صوتاً، فوجدتها نائمة في سريرها. كانت الستائر مسدلة، لكن شمس الصباح كانت قد تسلّلت من أطراف الستائر ومن الفسح التي ظلّت بينها. عبرتُ عتبة

الغرفة التي قلّما كنت أدخلها بخطوة. كبستُ الزر الذي كان على الجدار إلى اليمين، لكن الضوء لم يشتعل. تذكّرتُ بأنها قالت لي أمس بأن المصباح احترق ولا بد من تغييره، ووعدتها بأن أفعل ذلك. وبّختُ نفسي على تأجيل ذلك وتعاجزي عن جلب السلم من المخزن. فلا مفرّ من ألم ركبتي حين أتسلق السلم لتغيير المصباح. كنتُ قد تعللتُ بيني وبين نفسي بأن الكهرباء مقطوعة معظم الوقت ونحن نقتصد في تشغيل المولّدة ونعتمد على الشموع في الليل. لكن لا فائدة في تأجيل الموضوع. ناديتها مرّة أخرى «حِنّة! شبيكي؟ قومي! حنّة» خطوتُ يميناً نحو الشبّاك وأزحت الستائر إلى الجانبين، فاقتحمت الشمس فضاء الغرفة بقوة. وضعتُ يدي اليمنى أمام عينيّ لأحميهما من وهج الشمس. استدرتُ واقتربتُ من سريرها. كانت نائمة على جنبها الأيسر وقد غطّاها اللحاف حتى كتفيها. اقتربتُ من حافة السرير اليسرى ونظرتُ إليها عن كثب. كانت مغمضة العينين وخصلات من شعرها الفضي تنام مشعّثة على الوسادة بالقرب من وجهها. يداها كانتا مشبوكتين بالقرب من زاوية الوسادة السفلى إلى يمين وجهها، تقبضان على مسبحة الصلاة ذات الحبّات الحمر الصغيرة، التي لم تكن تفارق يدها، والتي كانت تضبط إيقاع صلواتها وأدعيتها. كانت المسبحة تنتهي بصليب فضّي صغير كان ينام بالقرب من فمها. لا شك أنها قد قبّلته قبل أن تنام. انحنيتُ وهززتُ كتفها برفق بيدي اليمنى مردّداً «حنّة». لم تتحرّك البتّة. وأحسستُ بكتفها صلباً بعض الشيء. لاحظتُ شحوباً على خارطة وجهها المليء بالتجاعيد. كررتُ بصوت خافت: «حنّة، يا حنّة.» أمسكتُ بيدها اليمنى لأجس نبضها فبدت كأنها تتشبث بأختها اليسرى وبالمسبحة. شعرتُ ببرودة ملمسها وأحسستُ بقلبي يسقط في حفرة. وأدركتُ

عندها بأنها لن تستيقظ. طوّقتُ معصمها بيدي واضعاً طرف إصبعي على رسغها الأيمن، فلم تسمع سبّابتي أي وقع لخطى الحياة.

كانت الحياة قد جمعت ما تبقّى من حاجياتها أثناء الليل وتركت جسد حنّة يسكنه الموت وحده بلا شريك. ها هو اللّه يحقق أمنيتها التي طالما ردّدتها لسنين، خصوصاً في ساعات الوجع والقرف: «أوف يا ربي! شوقت تاخذني وأخلّص وأرتاح؟» كانت دائماً تدعو للآخرين بطول العمر، لكنها تدعو لنفسها بقصره «ييزي عاد، خلص!»

جلستُ على حافة السرير. أردتُ أن أحتضنها مرّة أخيرة، لكنّني اكتفيتُ بوضع باطن يدي اليسرى على رأسها ومسّدتُ شعرها الأشيب. لم أكن ألمسها أو أقبلها إلا مرة أو اثنتين في السنة في الأعياد. وآخر مرّة مسّدتُ فيها شعرها كنت لم أزل طفلاً وكانت هي قد ورثت بموت أمّنا عبء الاعتناء بي وبإخوتي الصغار بالرغم من صغر سنها. كانت في الخامسة عشرة عندما أجبرت على التخلّي عن حلمها بأن تكون راهبة، وكرّست ما تبقّى من حياتها لكي تطعمنا وتسهر على راحتنا. وكرّست ما يتبقّى أثناء ذلك، وبعد انتهاء واجباتها، للتعبّد في البيت أو في الكنيسة. تركتْ يمناي يدها المتخشبة لأمسح الدموع التي بدأت تهطل. قبّلتُ جبينها البارد وقلتُ لها وكأنها لم تزل تسمعني: «اللّه يرحمكي حِنّة.»

في الصورة المعلّقة على الجدار فوق سرير حنّة كانت مريم العذراء، الممتلئة نعمةً، تتوشح بالأزرق وهي تحتضن ثمرة بطنها. انبثق عمود النور الإلهي من قلب السماء فوقها، وتحلّقت الملائكة حولها ترفرف بأجنحة صغيرة. وبالرغم من غبطتها بيسوع، بدت عيناها وكأنهما تنظران إليّ وإلى أختي بشيء من الحزن.

ظلّت دموعي تترقرق وأنا أصلّي لروحها، كما صلّت لي عمراً بأكمله «أبانا الذي في السموات». . . ثم أردفتها بـ «السلام لكِ يا مريم، الممتلئة نعمة. الرب معك. مباركة أنت في النساء، ومباركة ثمرة بطنك يسوع. يا مريم القديسة، يا والدة اللّه، صلّي لأجلنا نحن الخطاة، الآن، وفي ساعة موتنا، آمين.»

٤

تركتُ القلم الرصاص يسقط من يدي. ها هو الماضي يعود ليذكرني بحنّة، وكأنني كنت أقوى على نسيانها أصلاً. مشيتُ نحو غرفتها التي كنتُ قد قرّرتُ أن تظل كما كانت. فباستثناء ملابسها التي طلبتُ من إحدى بنات أخواتي، بعد انقضاء العزاء، أن تجمعها من خزانة الملابس الصغيرة وأن تأخذها إلى الكنيسة ليوزعوها على الفقراء، بقي كل شيء كما كان عليه في حياتها.

فتحتُ الباب وخطوتُ خطوة إلى الداخل. كانت غرفتها مظلمة وباردة كالقبر. كبستُ على الزر الذي كان على الجدار إلى اليمين، فلم ينقشع الظلام. تذكّرتُ بأن الكهرباء مقطوعة. وحتّى لو لم تكن مقطوعة، تذكّرتُ بأنّي لم أغيّر ذلك المصباح أبداً. بما أن نورها اختفى من الغرفة فقد قرّرت ألا أغيّره أبداً. وحتى عندما جاءت النسوة ممّن تبقّى من العائلة في بغداد وبعض الجيران ليغسلن جسدها ويمشطن شعرها ويلبسنها ملابس نظيفة تليق بسفرتها الأخيرة إلى القبر، قلت لهن إن الشمس تكفي في النهار وطلبت منهن أن يوقدن الشموع في الليل. لا بد أن مها هي التي أسدلت الستائر بعد أن نظّفت الغرفة لإنّي كنت أبقي الستائر مفتوحة. قالت لي بعد أن

نظفت غرفة حنّة أول مرة «كنّي روحها بعدها هوني بالقِبّة.»

مشيتُ نحو الشباك وأزحتُ الستائر كما فعلتُ قبل سبع سنوات بالضبط. طارت حمامة رمادية كانت تقف خارج الشباك على حافته الطابوقية بعيداً نحو بيت الجيران. دخلت أشعة الشمس وغطّت جزءاً من الأرض وثلثي السرير الذي كان مغطّى بشرشف أبيض وضعته فوق اللحاف. خطوتُ ثلاث خطوات إلى الشباك الثاني الذي يحاذي السرير وأزحتُ الستائر فامتلأت الغرفة بالصباح. استدرتُ ووقفتُ بجانب السرير. نظرتُ إلى صورة العذراء المعلّقة فوقه. إلى اليسار منها كانت هناك صورة لأخي، جميل، الذي هرب من العراق عام ١٩٦٩ بعد أن أعدموا صديقه بتهمة الماسونية وخافت زوجته اللبنانية من أن يلاقي هو نفس المصير، بالرغم من أنه لم يكن ماسونياً. فذهبا إلى لبنان وبقيا هناك وأنجبا ثلاثة أولاد وخمسة أحفاد حتّى الآن. عاشوا في سن الفيل، ثم انتقلوا إلى بكفيا ليعيشوا بالقرب من أهل زوجته، بعد أن دُمِّر بيتهم أثناء الحرب الأهلية. كان ما يزال في مقتبل شبابه في الصورة. كانت حنّة تحبه أكثر مني ومن بقية إخوتنا، رغم إنكارها ذلك. بقية الغرفة كانت مكرّسة للأيقونات ولتماثيل وتذكارات العذراء ويسوع الصغيرة التي كانت تهوى جمعها والتي اقتنت بعضها أثناء سفرتها الأخيرة إلى روما مع الكنيسة عام ١٩٨٩ بعد أن فُتِحَ السفر من جديد. كنتُ أحياناً أشاكسها وأقول لها إن كل ما ينقص غرفتها لكي تكون كنيسة مصغّرة هو المذبح والبخّور. فكانت تقول لي: «أي، ومنو يقدّس إنتَ؟»

حتى القدح الصغير الذي كان يوضع عند مدخل الكنيسة ويملأ بالماء المقدس كي يبلل المصلّون سبابتهم به ليرسموا علامة الصليب على وجوههم عندما تطأ أقدامهم أرض الكنيسة، كانت قد وضعت

نسخة منه داخل الغرفة على الجدار إلى اليمين من الباب وتحت نقطة الكهرباء.

وتحت قدح الماء هذا بنصف متر، جثمت «السِّنْگَر» القديمة، ماكنة الخياطة التي تعمل بمدوسة القدم، والتي كانت قد كدحت عليها لسنوات قبل أن يعمل البقية. أصرّت على الاحتفاظ بها رغم أنها لا تعمل ولم تستخدمها منذ عشرات السنين. كانت قد استغلّت حافاتها كمساحة إضافية تضع عليها التماثيل الصغيرة. في الزاوية القريبة من «السِّنْگَر» كانت هناك خزانة الملابس الخشبية وبجانبها طاولة تواليت ومرآة كبيرة. وباستثناء فرشاة شعر متوسطة الحجم عليها كفشة شعر بيضاء وبعض الماشات بجانبها، كان بقية سطح الطاولة خالياً من كل ما له علاقة بجسدها. كان مكرّساً لروحها. فتكدست بعض كتب الصلاة التي كانت رفيقتها في أيامها، وتبعثرت حولها تلك الصور الصغيرة التي كانت توزعها الكنيسة. بعضها بحجم بطاقات المعايدة أو أصغر، للعذراء وحدها، أو مع المسيح، ومار يوسف ومريم المجدلية وبعض القديسين. كما كانت هناك بعض الصور التي تؤرّخ لمناسبات مقدسة لأرواح أحبتها. لأولاد وبنات إخوتها وأخواتها أثناء طقوس المناولة الأولى أو العماد وقد وضعت صورهم مع صور القديسين والقديسات وكأنهم يحمونهم.

وتوسّط الطاولة صندوق صغير من الخشب، أعرف بأنها اشترته من إيطاليا وكانت تضع فيه مسابح الصلاة المختلفة، وصليبها «الحي» الذهبي الذي كانت تضعه حول رقبتها، وتؤمن بأنّه يحوي قطعة صغيرة من صليب المسيح. إلى اليسار من طاولة التواليت كان الجدار مليئاً بصور رجالات الكنيسة. واحدة للبابا يوحنا بولص الثاني

يرتدي ملابس البابا البيضاء ويبتسم. وتحتها صورة البطريرك بولص شيخو الثاني، الذي كان بطريرك الكلدان في العالم والذي كان مساوياً للبابا في المنزلة، لكن حنّة وضعت صورته تحت السابق. وتحتها صورة لعمانوئيل بيداويد الذي انتخب بطريركاً بعد وفاة شيخو وقد كتب تحت صورته: غبطة عمانوئيل بيداويد، المثلث الرحمة، بطريرك بابل على الكلدان في العالم.

وتحت صور البابا والبطاركة كانت صورة أصغر لها وهي أمام صرح الفاتيكان ترتدي معطفاً أسود ثقيلاً. كانت دائماً تستذكر حجّها هناك. أعجبتها روما كثيراً لكنّها كانت دائماً تتحسر على القدس التي زارتها عام ١٩٦٦. وكانت تظل تقول كلما دار نقاش حول فلسطين على التلفزيون أو في الجلسات: «أيْ شوقت ترجع القُدُس حتى نقدر نروح لكنيسة القيامة؟»

بالإضافة إلى كل الذكريات والصور، كانت حنّة قد عادت من القدس بصليبيْن. واحد صغير موشوم على باطن ساعدها ونُقِشَ تحته «١٩٦٦» سنة حجها. اختفى هذا الصليب الصغير معها تحت تراب القبر الذي ترقد فيه. أمّا الآخر، وهو أكبر بكثير ومن خشب الزيتون، فما زال معلّقاً، وحده، على الجدار الذي يواجه السرير.

فتحتُ أحد الشبابيك لأسمح لنسمة هواء نقي بأن تدخل. وقررتُ أن أبقيه مفتوحاً بالرغم من برودة الجو التي تسللت مع الهواء المنعش. خطر في بالي وأنا أخرج من الغرفة وأغلق بابها، بأنّ روح حنّة قد تشتاق إلى غرفتها وتزورها اليوم. سأغلق الشبّاك عصراً قبل أن أذهب إلى الكنيسة.

تذكّرتُ سخونة جدالي مع مها وأنا أعدّ الشاي. بالرغم من أنّها تعدّت حدود الاحترام المتبادل التي كانت مرسومة بوضوح بيننا بنبرتها وانفعالها واستخفافها بآرائي، إلا أنني لا أريد لها ألا تشعر بالراحة هنا، خصوصاً وأنها الأشهر الأخيرة قبل سفرهما، هي وزوجها. بالرغم من حبّي للعزلة والوحدة واعتيادي عليهما، إلا أن وجودهما أضفى حيوية وروحاً نديّة على البيت الكبير الذي تيبست ضلوعه. فهي وزوجها يخفّفان عني الكثير من أعباء البيت ولؤي لا يقصّر أبداً في المساعدة. ولا يمكن أن أنكر بأن طبخها جيد جداً. لا يمكن أن يرقى إلى مواهب حنّة طبعاً، لكنّي أتلذذ بما تجود به بعد أن كنت قد ملّلت من اللفات والسلطات التي أعملها، أو من الأكلات البسيطة التي لا أعرف غيرها.

جلستُ إلى طاولة المطبخ أحتسي الشاي وأفكّر بمخرج من الجو المحتقن والطعم المرّ الذي تركه جدال الليلة الماضية. ضحكتُ في سرّي ساخراً من الحقيقة التي خطرت في بالي. البعثيون ما زالوا يسبّبون المشاكل حتى وهم في غياهب السجون. من المضحك المبكي أن يكون طارق عزيز هو السبب في كل هذا. كانت هذه المرّة الثانية التي يسبّب فيها حزازات عائلية. فقد كان سبّب جدالاً حادّاً مشابهاً من قبل في نهايات الثمانينيات، بيني وبين حنّة، عندما قالت لي ذات يوم إنها شاهدت زوجته تبكي طوال القداس في الكنيسة يوم الأحد. أضافت بأنها تواظب على الحضور كل أحد وتظل تذرف الدموع من بداية القداس حتى نهايته. فقلت لها يومها لعلها تعرف ما يفعله زوجها. فاعترضت حنّة قائلة إنّه إنسان

ورع ولا علاقة له بما يفعله البعض في الحكومة. كما أنّه دائم التبرّع للكنيسة وكان تحمّل آنذاك نفقات شراء ثريّات جديدة جميلة وهائلة الحجم تزيّن سقف الكنيسة. ووبّختني قائلةً إنّي لو كنتُ أذهب إلى الكنيسة لرأيتُ ذلك بأمّ عيني. قلتُ لها إن التبرّع لا يلغي مسؤولياته وتاريخه ولا يمحو أفعاله. والمبالغ التي يتبرع بها لا شيء يذكر مقارنة بالبذخ الذي يعيشون فيه وما ينفقونه. ثم لماذا لا يجيء هو بنفسه إلى الكنيسة ليصلّي وليكفّر عن ذنوبه؟ قلت لها إن هذا قد يثبت الإشاعة التي ترددت عن أنّه كان قد أسلم، هو وميشيل عفلق.
ردّت علي حنّة بعصبيّة:

«لا باللّه؟ ليش ماتروح إنت للكنيسة وتكفّر عن ذنوبك؟»

«أنا ما عندي ذنوب وما كِنْ أذّيتو أحد.»

«هاي شلون حَكي هذا؟ ما يْكَفّي ما تِئْذي أحد. لازم تكمّل واجبك.»

كنتُ أذهب إلى الكنيسة في الأعياد والمناسبات فقط. وكانت حنة قد فقدت الأمل منذ عقود في أن أُكمِل يوم الرب، كما جاء في الوصايا العشر، لكنها كانت تنتهز كل فرصة عابرة لتذكيري بأنّي مقصر في واجباتي الدينية. ولم يشفع لي، أو يقنعها، قولي لها مازحاً، أكثر من مرة، بأنّها تذهب بالنيابة عني. وبما أنّها تذهب كل يوم فهي تصلي بما يعادل سبعة أشخاص، ويحقّ لها أن تنتخب ستة آخرين تصلّي بالنيابة عنهم. كانت تنظر إليَّ بطرف عينيها عندما أتفوه بأقوال كهذه ثم تهز رأسها وتعود إلى صمتها.

كان الحكم بالإعدام على طارق عزيز وآخرين قد صدر قبل خمسة أيام لدوره في التصفيات والإعدامات والتهجير. دارت جدالات حادّة وصاخبة على الفضائيات وصفحات الجرائد حول

الهدف من الحكم، خصوصاً وأنه كان مريضاً ومسنّاً ونفى أن تكون له أي علاقة بالمذابح التي اقترفها رفاقه ضد الأكراد والشيعة، لأنّه كان، كما قال، دبلوماسياً ومسؤولاً عن العلاقات الخارجية وحسب.

في المرة الأولى التي دار فيها النقاش بيني وبين مها ولؤي، لم يتطوّر الأمر إلى صِدام. قالت هي إنّ المسألة برمتها مهزلة وأنهم بدلاً من حل مشاكل الناس مشغولون بإعدام المسنين الأبرياء. سألني لؤي عن رأيي، فأجبته بأنّ هذه المحاكمات فيها تخبّط منذ البداية وأنها فاقدة للشرعية لأنها شُكِّلَت تحت الاحتلال وكان يجب الانتظار وعدم التسرع. حتى صدام ما كان يجب أن يُعْدَم، بل كان يجب أن يظل في السجن ليتعذّب. لكن طارق عزيز كان مشتركاً مع الآخرين وكان ينظّر للبعثيين وما قاموا به.

سألتني مها بنبرة حادة بعض الشيء: «يعني مو قيغْدِمونه لأنّه مسيحي؟»

فقلتُ: «عيني الموضوع أعقد من مسيحي ومسلم. موضوع سياسة ومصالح، مو دين.»

لم تقل مها يومها شيئاً، لكن بدا واضحاً أن كلامي لم يعجبها، فوضعت يدها على خدها وغطّت فمها كأنّها تحاول حبس الكلمات.

أما أمس فلم تحبس كلماتها حين خضنا في الموضوع من جديد بعد أن سمعنا خبراً جديداً ونحن نشرب الشاي. ذكر المذيع بأن رئيس الجمهورية، الطالباني، صرّح بأنّه لن يصادق على قرار الإعدام وبأنّه يحترم عزيزاً لأنّه مسيحي. وأضاف المذيع بأن الفاتيكان يحاول التدخّل والتوسط للإفراج عنه. فهزّت مها رأسها، ثم قالت:

«مو همَّه نفسهم جماعة حزب الدعوة هَجَمو عَلينو بالقنابِل اليدوية بالمستنصريّة بالتسعة وسبعين يريدون يقتلونو لأنّه مسيحي؟

مو همّه إرهابيين؟ أشو منو المُجرم اللي لازم ينْعِدِم؟ همَّه لو هو؟ هسّة آخر زمان الإرهابيين يِجون يحاكمون ويْحِذ مُثقَّف؟ هاي دولة القانون؟»

أضاف زوجها:

«يا قانون هذا عيني؟ همّه كلُّهم مجرمين وحراميّة. قيْسمّوها دولة الفافون، مو القانون.»

ثم جاء صوت ابن طارق عزيز على الهاتف ليقول للمذيع إن الحكم على والده قرار سياسي. وناشد المجتمع الدولي التدخّل لإطلاق سراحه لأنه بريء ويشكو من متاعب صحية.

تذكّرت العنجهية التي كان عزيز يتحدّث بها في الماضي عندما كان يظهر في المؤتمرات الصحفية ودخّان السيجار الكوبي الذي كان ينفثه، تشبّهاً بسيده القائد. وتذكّرت كيف أنّه هدد أحد الصحفيين البريطانيين ذات مرة بالقتل. لكنّي قررت أن أهدّئ الأمور وألا أقول شيئاً فيكفي الرجل أن يظل في السجن. لكن مها صعّدت من حرارة الجو عندما قالت:

«لو كان من جَماعِتهم ما كان عَدَمونو، بسْ طبعاً، لأنه مسيحي، دمّه رخيص.»

فأجبتها بهدوء «ليش اللي انعدموا قبله شكانو؟ كِلّتِهم أسلام. هذا أول وآخر مسيحي ينْحكم إعدام.»

«عيني قَيِعْدِمونَا بْكِل مكان بلا مَحْكَمة وماحدّ بِحْكي. الكَنايِس قَتِنْحِرِق والناس قَتِتْهجّر وقيذَبْحون بينا بِمْنَه بِسْره.»

«مو بس كنايس قتنحرق بنتي. الجوامع اللي انحرقت أكثر بكثير، والأَسلام اللي انقتلو عشرات الآلاف.»

«أي يروحون يِقْتِلون بعضِهم بعض، ويخلّونا بْحالْنَا. إحْنَا شَغْلينا؟»

«مو قصّة علينا لو ما علينا، بس دولة ماكو والأقليات مَاحَّد يحميها غير الدولة القويّة. إحنا لا عِدْنَا حِزِب ولا ميليشيا ولا بطيخ.»

لكن مها لم تكن مقتنعة برأيي أو مستعدّة لترك الجدال ينتهي كما أريده أنا. فقالت:

«ليش بسْ هوني؟ حِتّيني بمصر. وبمصر أكو دولة قوية. وأشو هَمْ قيذبحون المسيحيين ويحرقون كنايسِهم. راح يظلّون ورانا ورانا. يريدون يطَلْعونا مثل ما طلّعو اليهود. مِنو طلَّعِهم؟ ليش راحو؟»

«بابا موضوع اليهود غير شكل. موضوع معقد. دخلت بينو إسرائيل عالخط وحكومة العهد البائد كانت متآمرة وصار إسقاط جنسيّة وقصّة طويلة عريضة.»

خرج زوجها عن صمته، الذي لم يكن حيادياً البتّة، قائلاً: «بَسْ مو بَسْ إحنا عمّو. الصُبَّة هَمْ خَطِيّة واليزيديين بالشمال. شوف شصار بِيِهم. الأسلام ما قيخلّون أحد»

أضافت مها:

«هو دين انتشر بالسيف. شتتوقع يعني؟»

فقلت لها: «ليش الدين المسيحي شلون انتشر؟ بالحكي وبالعيني وأغاتي؟ لو مو هذا الامبراطور الروماني اللي نسيتو إسمو، اللي صار مسيحي، ما كان انتشر بسرعة. وبعدين لمن كانوا يدخلون مدينة، اللي ميصير مسيحي ينقصّ راسو، لا جزية ولا هم يحزنون. والحروب الصليبية وفتح أميركا الشمالية والجنوبية انذبحو بيها عشرين مليون بمباركة الكنيسة.»

«أنا ما أعرف هاي التفاصيل عمّو. هذا كلّه بالماضي. إحنا مشكلتنا هسّة، بالوقت بالحاضر. الأَسلام ميريدونا، بكل بساطة، علمود يظل البلد بس إِلِهم.»

«شنو إلهم؟ البلد بلد الكل، وبلدنا وبلد أجدادنا، إحنا قبل غيرنا. التاريخ يثبت... من زمن الدقناووس. من الكلدانيين للعباسيين للعثمانيين وتأسيس الدولة العراقية. المتاحف تشهد. إحنا موجودين قبل غيرنا. إذا مو بلدنا لعد بلد منو؟ ما تقليلي؟»

قالت مها بألم وبعد آهة: «هو آخرتنا راحْ نصير بالمتاحف إحنا همّينا... يمكن كان بلدنا قَبِل، عمو. أيام زمان. كان... بالماضي. هسّة خَلَص. هسّة صرنا كلنا كُفّار وذمّيّين.»

«لا كفّار ولا بطيخ. هسّة بس تستقر الأمور، الخير يرجع. شوية شوية. وهسّة الوضع كثير أحسن من قبل تلث أربع سنين.»

«شلون يرجع عمّو؟ ما تقلّي شلون؟ بعد كل هذا القتل والذبح والتهجير.»

«عيني أكو بلدان وشعوب مرّت بأوضاع أسوأ وبعدين هَمْ استقرّت الأمور. هاي حركة التاريخ.»

«عمّو اللّه يخلّيك هذا شلون حكي؟ إطلع وشوف شلون قيتعاملون الناس بالشارع وبالشغل وبعدين قول ترجع الأمور. مستحيل ترجع طبيعية.»

كان غضبها يحتدم ويدها اليمنى مبسوطة تلوّح بالهواء لتدعم ما تقوله حتى أن زوجها وضع يده اليسرى على ذراعها لينبّهها إلى ضرورة تخفيف نبرتها. لكنها استمرّت:

«ليش هو شوقت كان وضعنا مستقر ميّة بالميّة وماكو عنصريّة وتفرقة؟»

«عيني. مع احترامي، إنتي بعدكي صغيرة. هذا اللي قيصير طارئ. أيام زمان...»

فقاطعتني:

«ما أعرف أيام زمان عمّو. وماريد أعرف.. أريد أعيش بكرامة مثل الأويدم.»

«طبعاً... من حقكي، بس التاريخ...»

قاطعتني ثانية: «يا تاريخ، اللّه يخليك، تره إنت عيّش بالماضي عمّو.»

٦

لا تزال في سريرها الآن ولم تستيقظ بعد للذهاب إلى الجامعة. تذكّرت كيف أن الحرب هي التي قربتني منها أول مرة عام ١٩٩١. وكيف أن حرباً أخرى، أو بالأحرى ما تلاها من مصائب وكوارث، هي التي حوّلت مجرى حياتها لتعيش معي تحت سقف واحد هي وزوجها. وهو ما لم أكن أتصوره أبداً. لكن هل كان أحد يتصور أي شيء مما حدث في العقود الأخيرة؟

كنت أفضّل البقاء في البيت، لكن حنّة أصرت على أن نلتحق بالأقرباء، خصوصاً أن صوت القصف أرعبها. فمقر قيادة القوة الجوية كان قريباً من البيت وكان القصف «عبالك فوق راسنا» كما ظلت تردد للآخرين لاحقاً. وعندما تجادلنا حول قرار الذهاب إلى الملجأ، قلت لها: «إذا اللّه يريدنا نموت، نموت وين ما نكون» فقالت: «نروح نموت ويّ قرايبنا أحسن. ليش نموت بوَحِدْنا؟» فقلت لها: «شِنو خوما هي حفلة؟ أنا أريد أموت ببيتي!»

لم يكن الملجأ ملجأ حقيقياً، بل سرداباً تحت أسواق الأميرة التي يمتلكها أحد أقربائنا في منطقة الكرادة خارج. لكنه كان كبيراً يتسع لبعض أقرباء صاحب المحل، بالإضافة إلى بعض العوائل التي كانت تسكن في الشارع الفرعي الذي يقع المحل في رأسه، من الذين لم يتركوا بغداد. حيث كان الكثير من الناس قد تركوا العاصمة إلى المحافظات قبل يوم أو يومين من بداية القصف للابتعاد عنه.

أول مرة رأيت مها فيها كانت طفلة تبكي، مثلما بكت أمس. وتألّمت وأنا أرى دموعها تنهمر. كنت قد رأيتها من قبل بالطبع في المناسبات العائلية ولكن تلك هي المرّة التي أذكرها بوضوح. كنت الوحيد الذي عرف كيف يساعد أمها، نوال، في تهدئة روعها في الملجأ في تلك الليلة المظلمة عام ١٩٩١. كانت الطائرات الأمريكيّة تدك بغداد ليلتها في قصف شديد يهزّ الأرض. ومها في أحضان أمها تبكي. فقامت تمشي وحوّلت ذراعيها إلى مهد تهزّه وتهدهدها. وصلت إلى الباب الذي يؤدي إلى الدرج حيث كنت أقف وبيدي المذياع الصغير الذي كان دائماً معي لأتابع الأخبار، مع أنها لم تكن قد تغيّرت في اليومين الأخيرين «غارات جوية لقوات التحالف على أهداف في العراق والكويت.» لكن المذياع لم يكن يلتقط شيئاً في السرداب وكان علي أن أصعد لكي ألتقط الموجة وكنت أضطر إلى النزول عند اشتداد القصف.

عندما رأيت مها تدفن وجهها في صدر أمّها، قالت لي أمها: «ميتة من الخوف خطيّة!» ثم قالت لمها: «شوفي هذا عمّو يوسف، هيانو هوني. يالله قلّيلو «هَلَوْ عمّو!»» نظرتْ إليّ مها بعينيها الزيتونيتين المبللتين بالدموع دون أن تسمع كلام أمّها.

فقلت لها: «هاي شبيكي؟ ليش تبكيْن؟» فأشارت بيدها الصغيرة

إلى سقف السرداب وقالت «هذا» فقلت لها وأنا أقرص خدها: «هذا؟ شنو هذا؟» فقالت «بو! بو! بو!» ولمعت عيناها، ثم أعادت إصبعها إلى فمها. فقلت لها «لا، مو بوبو. لا تخافين! هذا مطر. مطر قوي. هسّة يخلص ويروح. باح!» اتّسعت حدقتا عينيها وكأنها تفكّر بما قلته. ثم نظرت إلى أمّها التي أكّدت لها، هي الأخرى: «أيْ حبيبي، مطر، هذا مطر.» فبدأت تكرّر وراء أمها «مَتَر، مَتَر» دون أن يختفي الخوف كليّاً من عينيها. وظلت طوال الأيام التي قضيناها في السرداب تردّد، كلما اشتد القصف: «مَتَر، مَتَر.» كأن تلك الأحرف الثلاثة مظلة تحتمي بها من تلك الغيوم، بشرية الصنع، التي ظلت تزخ بقطرات مختلفة الأحجام على بغداد ومدن العراق لأسابيع طويلة.

أخذت حنّة بعض الكليچة والسمبوسك وفطائر الجبنة في أكياس لنأكلها في الملجأ. وكنت أشتري بعض الشوكولاتة عندما كان صاحب المحل يغتنم ساعات السلام بين موجات الغارات ويفتح المحل. وكان غزو الكويت قد أدخل أنواعاً من الشوكولاتة لم أكن قد ذقتها منذ سنين طويلة مثل الكادبري البريطانية والفليك. قرأت على غلافها الورقي وأنا أنهي واحدة لذيذة بالبندق والزبيب «مستورد خصيصاً للكويت» فأدركت بأنها منهوبة. مثلما قرأت على علبة الجبنة التي اشتريتها من السوق بعد شهرين «مساعدات من الدانمارك للشعب العراقي.»

لم تكن ضربات الأمريكان جراحية كما كانوا يدّعون في الأخبار، بل كانت، كما ظلت حنّة تردد «عامي شامي.» فأخطأوا في قصف بناية بريد العلوية القريبة منّا ثلاث مرّات ودمروا عمارات بالقرب منها قبل أن يصيبوها. ولم أفهم ما شأن مكتب بريد العلوية

بالكويت التي كانوا يريدون تحريرها. قال أحد الرجال في الملجأ، والذي كان دائم التدخين خارج باب السرداب، وكان دائماً يتطوع للإجابة على كل سؤال بدون سبب: «علمود يقطعون الاتصالات ويّ الجيش بالكويت.» لكنني، وكنت أنزعج منه أساساً، لم أقتنع. «يعني قابل الجيش قَيِتِّصِل بالكويت من هذا البريد؟ هاي شلون حكي هذا، اللّه يخليك؟»

وفي اليوم الذي تلا ضرب بريد العلوية، قرّرت أن أمشي لأشاهد بنفسي ما حدث. وعند اقترابي من الفروع القريبة من البناية شاهدت مئات الأوراق مبعثرة على الأرض وبعضها معلق بسعف النخيل. وعندما وقفت لأقرأ ما عليها تبيّن بأنها كانت فواتير هاتف وأوراق من معاملات رسمية مبعثرة في كل مكان.

بعد أسبوع من البقاء في الملجأ لم تبق قطرة ماء واحدة في خزانات الماء على سطح البناية وأُغلق الحمام الوحيد الذي كان يستخدمه الجميع ممن لم تكن بيوتهم قريبة من السرداب. أصبح الوضع حرجاً واقتنعتْ حنّة بضرورة العودة إلى البيت فعدنا إليه. كانت واحدة من المدافع المضادة للطائرات على سطح بناية مجاورة وكان صوت إطلاقاتها مرعب هو الآخر يكاد يصم الآذان، فلم يبق فرق بين السرداب والبيت.

عندما عدنا إلى البيت كان علينا تنظيف الثلاجة والمجمدة وإلقاء ما تلف من المأكولات فيهما بسبب انقطاع الكهرباء منذ اللحظة الأولى. كانت حنّة ستلقي باللحم الذي كان في المجمدة في الزبل بسبب الصوم الكبير. لكنّي قلت لها يومها: «حرام بابا. كل شي مسدود وأكل ماكو. اطبخينو ناكِلو أحسن.» تجادلنا وكانت مصادفة ربّانية أن القس كان قد مشى من الكنيسة القريبة إلى بيوت المسيحيين

القريبة من كنيسته ليطمئن على رعيته وزارنا. سألته حنّة عن اللحم فقال لها إن الكنيسة أصدرت تعليمات بالسماح بتأجيل الصوم نظراً للظروف الاستثنائية. فقلت له: «هم زين. اللّه جابك أبونا!»

كان القصف في الأيام الأولى كثيفاً وعلى مدار الساعة ثم استقرّ على برنامج يبدأ في المساء «حفلة الأمريكان» كما سمته حنّة، ويستمر إلى ساعات الصباح الأولى. وكانت حنّة تردد نفس السؤال كل صباح «هاي شكان البيحة بالليل؟ دُمْ ودُمْ ودُمْ. ما يكفّي؟ ما شَبَعو؟»

أيامها جاء عامر، ابن أختي سليمة، على دراجته من بيتهم في منطقة الأمين الأولى. كان البنزين مقطوعاً مثل كل شيء والهواتف لا تعمل، فاكتسبت الدراجات أهمية مضاعفة. كانت سليمة قد بعثت به للاطمئنان علينا ونقل لنا طلبها بأن ننتقل إلى بيتها في الأمين الأولى لأنه آمن وليس قريباً من قيادة القوة الجوية. لكنّي رفضت بالطبع وقلت له: «شكراً عيني، بس بيتكم مو أحسن ابني. معسكر الرشيد بظهر بيتكم ونفس القوانة.» حاولت حنّة إقناعي بالذهاب، لكنني رفضت وتركت لها حرية الذهاب وعرضت أن أوصلها رغم أنني كنت أريد أن أبقي البنزين الذي كان في خزان سيارتي للطوارئ. دمدمت لكنها ظلت في البيت لأنها لم تكن ترضى أن أظل وحيداً.

كان الماء يجيء تقريباً مرّة كل ثلاثة أيام، فكنا نملأ كل ما يمكن ملؤه من زجاجات وسرّاحيات بالماء. وكنا نملأ حوض البانيو الذي في الحمامين في الطابق الأرضي لاستخدام الماء للمرحاض. وللاستحمام اضطررت إلى إشعال بعض الكرب واستخدمت الموقد الذي في غرفة الضيوف لتسخين الماء بالقدور. هزّت حنّة رأسها

يومها وقالت «رجّعونا ميت سنة ليورا. كنّا نقعد ونشوي كسْتَنا بينو أيام زمان.»

بعد وقف إطلاق النار الذي أنهى الحرب تغيّرت كل المفردات والشعارات من «عودة الفرع إلى الأصل» و «أم المعارك» إلى «أحداث الثاني من الكويت» و «العدوان الثلاثيني.» وعندما بدأت الانتفاضة في الجنوب والشمال لاحظتُ اختفاء سيارة المخابرات ذات الزجاج المظلل التي كانت تقف في ساحة الواثق القريبة من بيتنا عندما ذهبت لشراء بعض الحاجيات. قال لي البائع في أسواق الواثق، الذي كان يستمع إلى الراديو: «عالگة بكل مكان.» لم يلق صدام خطاباً لمدة ثلاثة أيام وسمعت على الراديو أنه فقد السيطرة في معظم المحافظات. لكنه عاد وأمسك بزمام الأمور بعد أن ذبح الآلاف وألقى بهم في مقابر جماعية.

وعندما عاد التيار الكهربائي أول مرة بعدها في نيسان كان ذلك قبل يوم من عيد ميلاد صدام. ظهر في اليوم التالي يحتفل به ببدلة بيضاء ويقطع كعكته أمام أطفال يرقصون ويغنون له كأن شيئاً لم يكن. قالت حنّة تخاطبه «يعني رَجّعْت الكهرباء بس علمود نشوف چهرتك؟» ثم توجّهت إلي متسائلة: «يعني ما يستحي هذا هِكّي يسوّي بعد اللي صار بينا؟ موعيب؟ الناس ماتت والبلد انخرب وهو يسوّي هابي بيرثدي مثل الزعاطيط؟ أخلاق سز.»

٧

كنتُ بحاجة لسحب بعض النقود من المصرف وكنتُ أنوي زيارة صديقي سعدون. رفضتُ رفضاً قاطعاً أن آخذ إيجاراً من مها وزوجها

رغم إلحاحهما. لكن ذلك لم يؤثر على ميزانيتي ووضعي كثيراً، فمصاريفي بسيطة وكنت قد ادّخرت الكثير مما كان إخوتي وأولادهم يبعثون به بين فترة وأخرى. وقرّرت ألاّ آخذ السيارة، فالمسافة قريبة وقد وعدت نفسي بأن أطبق نصائح الطبيب بأن أمشي كل يوم للمساعدة في تخفيف ضغطي المرتفع. أعدت استكان الشاي إلى المغسلة. أخذت حبة الضغط مع قليل من الماء من فم قنينة مياه طبيعية كانت في الثلاجة دون أن أستعمل قدحاً. أحب الماء البارد في كل الفصول. ذهبت إلى غرفتي وخلعت البيجامة وارتديت بنطلوناً رمادياً وقميصاً أزرق وحذاء السبورت المريح الذي كنت أنتعله للمشي. بحثتُ عن المعطف الكحلي في غرفتي وفي دولاب الملابس لكني لم أجده. ثم تذكّرتُ بأنه معلق في المدخل. خرجتُ من غرفتي، التي كانت في الطابق الأول، وأغلقتُ بابها ووقفت عند الدرج أسترق السمع. لم يكن هناك أي صوت قادم من الطابق الثاني وكان الباب مغلقاً. سأرى مها قبل الكنيسة وسنتصالح. ستعتذر هي بالتأكيد وسأبادلها الاعتذار لأنني ربما لم أكن حساساً بما فيه الكفاية بخصوص ما حدث لهم في الدورة. عبرت غرفة المعيشة باتجاه المدخل في طريقي إلى الباب. أخذت معطفي الكحلي من الشماعة وارتديته. ثم أخذت سلسلة المفاتيح من فوق الطاولة الخشبية التي كانت تحت الشماعة. فتحت السرگيات الثلاث ثم قفل الباب الخشبي. هبت نسمة باردة على وجهي، فعدت إلى الشماعة وأخذت لفافي الأسود ووضعته حول رقبتي. رأيت أن الباب الجانبي المؤدي من المدخل إلى غرفة الضيوف كان مفتوحاً. مددت يدي وقبل أن أغلقه لمحت الصور المعلقة على جدار الغرفة المقابل بالقرب من البار الخشبي. مشيت إلى داخل غرفة الضيوف التي لم أعد أستعملها

كثيراً في السنين الأخيرة لأن الزيارات قلت ومعظم الأقرباء هاجروا. تعثرتُ بحافة السجادة الفارسية الكاشان التي كنت أحب ألوانها وكدت أسقط قبل أن أستعيد توازني ثانية. درتُ حول الطاولة الخشبية التي تتوسط الغرفة ووقفت أمام أرخبيل الصور. كنت قد انتقيتها بنفسي منذ سنين طويلة وأطّرتها وعلّقتها بعناية وحاولتُ أن أحافظ على مسافة متساوية بين واحدة وأخرى. مسافة لا تطابق عدد السنين التي كانت تباعد بينها والتي تفصل الآن بين الصور ومن ينظر إليها. تذكّرت حلم الليلة الماضية مرة أخرى.

صُوَر

١

لا أحد يعرف تاريخ الصورة بالضبط. لكن يوسف يتذكّر بأنها التقطت ذات جمعة قبل أشهر قليلة من حركة رشيد عالي الگيلاني عام ١٩٤١. أي أنّه كان في الثامنة من عمره. والتقطت في بيت العائلة القديم في عقد النصارى الذي كانوا يتقاسمونه مع عائلة عمّه يوحنّا. مر المصوّر الأرمني على الشارع بيتاً بيتاً يحاول إغراء العوائل بأن تلتقط صورة جماعية. تردّد أبو يوسف في البداية لكن الجميع ألحّ، خصوصاً أن أخاه، يوحنا، وافق وبدأ ينادي زوجته وأولاده كي يجتمعوا ويستعدّوا للصورة. اختار المصور زاوية مناسبة في باحة البيت فيها ما يكفي من الضوء وطلب منهم أن يعلّقوا قطعة قماش بيضاء كبيرة على الحائط في حوش البيت لتقف العائلة أمامها كي تلتقط الصورة. بعد أن استُحْصِلَت الموافقة وبعد أن انتهى المصور من التقاط صورة لعائلة يوحنا جاء دور عائلة گورگيس.

يبدو گورگيس، أبو يوسف، جالساً بوقار في قلب الصورة، يرتدي الصاية واليشماغ ملفوف حول رأسه على طريقة القادمين حديثاً من قرى الشمال. رغم أنه كان قد هجر تلكيف وجاء إلى بغداد قبل أكثر من ثلاثة عقود، إلا أنّه رفض أن يغيّر ملابسه ويلبس «أفندي» مهما ألحّ عليه الآخرون. وظل يرتدي هذا الزي حتى موته عام

١٩٥٧. كانت ذراع گورگيس اليسرى تطوّق عنق يوسف، ويده اليسرى تمسك بيد ابنه الذي كان يجلس إلى يساره وكان كالعصفور، لا يكف عن الحركة. أما يد گورگيس اليمنى فكانت تستقر على ركبته اليمنى بعد أن سوى شاربه مرّة أخيرة، قبل أن يطلب منهم المصور أن يتوقّفوا عن الحركة ويركّزوا جميعاً على العدسة. ثم سحب لوحاً من داخل الكاميرا إلى خارجها وبدأ يعد من خمسة إلى واحد. بجانب گورگيس، جلست زوجته نعيمة تبتسم ابتسامتها الواثقة. الصورة بالأبيض والأسود إلا أن اختفاء الألوان عنها لم يخفِ بريق عينيها السوداوين واتساعهما الذي طالما سحر گورگيس وشجّعه أن يعود بعد سنوات من التنقل بين بغداد والمحمرة، والعمل في الملاحة النهرية بين المدينتين مع أبناء عمومته، لكي يخطبها بعد أن كانت قد ظنّت بأن بغداد أنْسته القرية ومن فيها. حذّر البعض أهلها من أن يوافقوا على تزويجها لأنهم قالوا إنّ الرجل منحوس، فقد ماتت زوجته الأولى وطفلاها غرقاً، وها هو سيأخذ نعيمة لتغرق هي الأخرى. لكن والدها لم يأبه بهذا الكلام وكان سعيداً بتزويجها لرجل كان يثق بمعدنه لأنه يعرف أباه، خصوصاً بعد أن عملا عمراً بأكمله مع بعضهما البعض يزرعان الشعير في أرضيهما المتجاورتين في تلكيف.

بدت نعيمة سعيدة في الصورة، فقد كانت «أمل» آخر العنقود، تتحرك في أحشائها بنشاط وتعلن عن وجودها وكأنها تريد أن تظهر في الصورة هي الأخرى. أو أن تلعب مع سليمة، التي كانت في عامها الثاني في حضن أمّها. سليمة، التي أصرّ گورگيس على أن تحمل الاسم الأوّل لأشهر مغنية في العراق في تلك الأيام، سليمة مراد باشا. أرادت نعيمة أن تضيف المزيد من ثمار بطنها، ربما لتظل

تعوّض گورگيس عن زوجته الأولى وولديه اللذين ماتا مع أمّهما قرب المحمرة في حادث يرفض گورگيس أن يستعيد تفاصيله. لكن قلب نعيمة توقّف ذات ليلة بعد العشاء وفارقت الحياة بعد سنتين من تاريخ الصورة. وتركت لأكبر بناتها، حنّة، التي كانت تجلس بجانبها وتتشبّث بذراعها اليمنى، حملاً ثقيلاً. فسيكون عليها أن تترك المدرسة في الخامسة عشرة من عمرها وتتفرغ للطبخ ولتربية إخوتها وأن تعمل بالخياطة خمس سنوات طوال كي لا تغرق سفينة العائلة، وكي يكمل إخوتها تعليمهم ويشقّوا طريقهم في الحياة. وكان عليها أن تقدّم تضحية هي الأكبر، بنظرها، وهي التخلّي عن حلمها بأن تكون راهبة تكرّس حياتها للمسيح. فكرّست حياتها للآخرين. وظلت عانساً بدلاً من أن تكون عروس المسيح الطاهرة وتلبس ثياب العذرية الأبدية البيضاء.

أمّا حبيبة، التي كانت تصغر حنّة بثلاث سنوات، لكنها كانت أطول من عمرها ومن أختها، فكانت تقف وراءها بالضبط وتضع يديها على كتفي أختها الكبرى كأنها تشكرها مقدّماً على كل ما ستفعله. ولم تكن تعرف بعد، بأنّها ستكون فيما بعد من أوائل دفعات الممرضات في العراق، وبأنّ أول تعيين لها سيكون في السليمانية، في كردستان العراق. سينتقل الأب وبناته إلى تلك المدينة البعيدة كي يكونوا معها وهي تعمل هناك لثلاث سنوات وبقي الذكور الخمسة في بيت عمهم في بغداد. كان راتب حبيبة يكفي لإعالة الجميع، وبعد سنوات قليلة لأن يرتاح أبوها من عناء السنين وأن يظل في البيت بعد الإصابة التي ستقعده.

طلب المصور من غازي وجميل وإلياس وميخائيل الذين كانت أعمارهم تتدرّج من السابعة إلى الرابعة، أن يجلسوا على الأرض

تحت أقدام والديهم. كانت هذه هي الصورة الوحيدة التي تجمع العائلة بأكملها. تفرّقوا بعدها في أرجاء البيت وأرجاء الدنيا ليظهروا في صور أخرى. غازي سيعمل في الآي بي سي في كركوك حتى عام ١٩٦١. ثم يعود إلى بغداد بعدها ويعمل مع شركة رابكو للأصباغ، ثم يهاجر إلى ميشيغان عام ١٩٧٩ ويعمل هناك لسنوات شريكاً في محل قبل أن يستقر في سان دييغو، كاليفورنيا. جميل سيعمل مع شركة «شاكر إبراهيم وإخوانه» ثم يسافر إلى بيروت عام ١٩٦٩ بعد أن يعدموا صديقه بتهمة الماسونية. وسيظل هناك ولن يعود ولا مرة إلى العراق. إلياس كان الوحيد من بين الذكور الذي سيدخل الجامعة. سيدرس الحقوق لكنه سيتورط في السياسة ويدخل السجن عدة مرات. ميخائيل، أصغر الذكور، الذي كان المدلل، سيعمل بعد تخرجه من كلية بغداد، مثل يوسف، مترجماً، لكن مع عدة شركات أجنبية، ثم وكيلاً، قبل أن يستقر كمدير تسويق في السفارة الاسترالية عام ١٩٧٧.

٢

يوسف في العاشرة، يرتدي قميصاً أبيض وقد رُبِطَ حول ساعده الأيمن شريطٌ أبيض بدا كفراشة كبيرة وقفت عليه. وغطت كفوف بيضاء ناعمة الملمس يديه، اللتين انطبقتا تصلّيان وقد تدلت من بين الإبهامين والسبّابتين مسبحة صلاة تنتهي بصليب. لكنه لم يكن يصلي حقّاً. شعره الأسود ممشّط بعناية وبدا كأنه يحبس ابتسامة على وشك أن ترفرف على شفتيه. فهو كان محط اهتمام الجميع وقبلة أنظارهم ذاك الصباح. كان قد انتهى من طقوس المناولة الأولى في كنيسة أم

الأحزان القريبة من بيتهم في عقد النصارى. أخذه أبوه بعدها إلى استوديو ليلتقط له صورة تذكارية تحفظ اليوم الذي دخل فيه يسوع إلى قلبه. فبعد ذلك اليوم كان عليه أن يلتزم بالتعاليم مثل الكبار، وأن يصلي كل يوم قبل النوم، ويذهب إلى الكنيسة مع والديه كل أحد ليعترف ويتناول القربان المقدّس. لم تظهر الصورة التي ركّزت على النصف الأعلى من جسده البنطلون الأبيض الجديد ولا الحذاء والجوارب الجديدة التي اشتراها له أبوه بهذه المناسبة. كان قد ركع أمام تمثال المسيح المصلوب في كنيسة أمّ الأحزان في الصباح وردد التراتيل التي حفظوها جميعاً في الأسابيع الماضية والتي ما زالت بعض مقاطعها في رأسه: «قدّيشا آلاها، قدّيشا حِلثانا، قدّيشا لا مايوثا إثراحِمّ علين. شوحا لاوا،ولورا، ولروحَد قُدْشا، دعالمين آمين، مِن عالَم وعَذْما لعالم، آمين وآمين. لا خومارا دخولاً مَوْثيلا، لاخ إيشوع مشيحا مشَبْحيلا....» واستمع إلى موعظة البطريرك الذي أشرف على الطقوس وناولهم الذبيحة الإلهية بيده. كان طعم جسد المسيح المبلل بدمه، وهكذا سمّى البطريرك البرشانة المبللة بالخمر، لا يزال في فمه. وتذكر أن يدع البرشانة تذوب في فمه وألا تكسّرها أسنانه لأنها جسد يسوع الهشّ. لكنه الآن كان يركع أمام الكاميرا، وبدلاً من البطريرك كان المصوّر الأرمني هو الذي يشرف على هذا الطقس المهم ويخاطبه بعربية مكسّرة ليطلب منه أن يصوّب نظره إلى عدسة الكاميرا ويقول «لا تتحركين!» استغرب يوسف يومها فهو لم يكن بنتاً، لكنه فهم من ابتسامة أبيه بأن هذه هي الطريقة التي يتحدث بها هذا الرجل.

بعد الصورة عادا إلى البيت حيث كانت والدته قد سبقتهما مع البقية وأعدّت الفطور الاحتفالي على مائدة في حوش البيت، حيث

اجتمعت عائلته وعائلة عمه. وأكل يوسف يومها كميات كبيرة من الكاهي اللذيذ بالقيمر الذي جلبه عمّه، إضافة إلى لفّات خبز الرقاق الذي كان يحبه، محشوة بالجبنة وبالمربّى التي تصنعها أمّه، والتي التهمها مستغلاً الهرج والمرج وطيبة قلب حنّة التي لم تكن ترفض له طلباً فتعد له اللفات. أصيب بإسهال شديد في اليوم التالي وظل طريح الفراش لأنه أكل بشراهة ثم ركض ولعب مع أولاد عمه وإخوته. ووبّخته أمّه قائلة بأنه لم يرعو بعد. «آي ما إيث بريشُخْ؟ سَطانَا؟» كان يسوع قد دخل قلبه لكن الشيطان ما زال في رأسه! كانت أمهم القادمة حديثاً نسبياً من القرية تخاطبهم وتخاطب زوجها بالكلدانية التي كانوا يفهمونها، لكنهم كانوا يجيبون بالعربية.

٣

وقف جميع طلاب الشعبة قبل أسابيع من تخرجهم عام ١٩٥٠ أمام المبنى الرئيسي لكلية بغداد، تحت القطعة الكبيرة التي حملت اسم المدرسة، بالعربية والانكليزية، مع جملة إضافية تشير إلى الآباء اليسوعيين الذين أسسوها وكانوا يدرّسون فيها. وقف سبعة من الطلاب في الصف الخلفي، ظهورهم إلى الباب العالي. وعلى درجة أوطأ، وقف ثمانية آخرون في الصف الوسطي. أما الصف الأمامي فتوسطه فاذر أوكاسي، أحد اليسوعيين، وكان من بوسطن، يحيط به ستة طلاب. لا يبدو من يوسف، الثاني من اليمين في الصف الخلفي، إلا وجهه وجزء من كتفيه. كان يتوسط نسيم حزقيل وسالم حسين وقد مد ذراعيه الطويلتين كجناحين فوق كتفيهما ليضمهما بالقرب منه. لم يكن غريباً أن يقف الثلاثة بجنب بعضهم البعض في

الصورة، فقد كانوا يجلسون معاً داخل الصف وكانوا دائماً مع بعض في الساحة، حتى أن الفاذر سمّاهم pack of wolves «قطيع ذئاب» لكن يوسف قال له: «No father, we are a harmless flock of birds» «كلا، يا أبونا، نحن سرب طيور مسالمة.»

وتفرّق السرب بعد التخرّج، فدخل سالم كلّية الطب، وكان أبوه، وهو تاجر معروف، هو الذي توسّط ليساعد يوسف في الحصول على أول وظيفة له كمترجم عقود في جمعيّة التمور العراقية. لولا المنح التي كانت تقدمها كلية بغداد لبعض الطلاب المتفوقين من العوائل المحدودة الدخل لما استطاع يوسف أن يدخلها. أمّا نسيم فبدأ العمل في شركة «آندرو واير» للاستيراد والتصدير. لكن الثلاثة كانوا يلتقون بين حين وآخر بالرغم من مشاغلهم الجديدة. ولم يتخيّلوا أبداً أن ينقص السرب طائراً. لم يكن نسيم يبدي أي قلق، حتى في الأشهر الأخيرة قبل رحيله، عندما كان يوسف وسالم يستفسران منه، خصوصاً أن الإشاعات بدأت تدور أنّ بعض اليهود بدأوا بالهجرة والهرب. لكن والد نسيم لم يكن يفكر بها، ولا حتى بعد إصدار قانون إسقاط الجنسية عن اليهود عام ١٩٥٠ قبل أسابيع من تاريخ التقاط الصورة. كان نسيم يكرّر ما يقوله أبوه: إنّها غيمة عابرة وإنّهم سيظلون في العراق. فالفرهود أيضاً كان مخيفاً لكنّه أصبح في خبر كان واستقرّت الأمور بعدها. وبالرغم من بعض حوادث الاعتداء، إلا أن الأمور ستستقر.

لكن بعد حوالى سنة من التقاط الصورة، عندما كان الثلاثة يمشون على شاطئ دجلة، بدا نسيم مهموماً ولم يقل الكثير. كانت بشاشته قد هجرته واحتل وجهه وعينيه وجوم عميق. بعد إلحاح سالم في السؤال عن السبب، صارحهما نسيم بما كان يثقل قلبه

«يمكن هاي آخر مرّة نتشاوف.» لم يفهم يوسف وسأله بسذاجة: «ليش وين رايحْ؟» فأجاب نسيم: «أبويا سجل أسامينا بالتسقيط وراح نروح لإسرائيل.» خيّم صمت ثقيل بعد أن أبلغهم الخبر. كانت الأشهر التي سبقت ذلك قد شهدت خمس هجمات على أماكن يرتادها اليهود أو يملكونها وعلى معبد مسعودة شمتوف لإرهابهم، تبين فيما بعد بأن عصابات صهيونية كانت قد نفذتها. قال نسيم إن أباه فُصِلَ من عمله وتم تجميد أموال العائلة وممتلكاتها. فقرّرت العائلة أن تلتحق بالبقية الذين قرروا التسجيل للهجرة.

لم يسمعوا سوى وقع خطاهم وحفيف السعف وأغصان الأشجار التي حركتها ريح كأنها تودّع نسيم. سأله يوسف «شوكت تروحون؟» فأجاب «يمكن بعد يومين، ما أعرف.» لم يستوعب يوسف كيف يمكن أن يحدث هذا بكل بساطة وسأل سؤالاً لا جواب له: «شلون هيچي تروحون؟» حاول سالم أن يكسر الحزن الذي خيّم بتفاؤل مفرط أقرب إلى السذاجة، قائلاً: «يالله، بَلْكَن تروحون چم شهر، ومن تنحل مشكلة فلسطين ترجعون.»

عانقاه بحرارة أمام بيتهم في البتاويين وأدمعت عيناه أثناء الوداع. قال لهم إنّه سيراسلهم من هناك. لكن الرسائل لم تصل أبداً. لم يكن سالم يصدق بأنه لن يرى نسيم ثانية. وحتى بعد رحيله بأشهر ظل يلح بين الحين والآخر على يوسف كي يمرّا بشارع بيت نسيم. لكن البيت كان مهجوراً. ومرت السنين، لكن سيرة نسيم العطرة كانت تمر في أحاديثهما أحياناً عندما يستعيدون أول الشباب.

يوسف يرتدي بدلة داكنة وربطة عنق ويجلس وراء مكتب اصطفت فوقه ملفات وأوراق. في الأسابيع الأولى من عمله كانت مهمّاته تتلخص في ترجمة المراسلات التي تصل من الخارج من اللغة الإنكليزية إلى العربية، وترجمة أو كتابة المراسلات الخاصة بالعقود والعروض والمناقصات بالإنكليزية. واستغل يوسف أوقات الفراغ والملل في مطالعة بعض الكتب التي كانت متوفرة في مكتبة الدائرة الصغيرة وكان معظمها عن الزراعة والتجارة. أثار فضوله أحد كتب المستشرقين، واسمه السير روجر كنغسلي عن «الشجرة المقدسة: النخيل في الحضارات السامية.» كان يضطر للبحث عن معاني بعض الكلمات الصعبة في القاموس ويسجلها في دفتر ملاحظاته. ثم خطرت له فكرة ترجمة الكتاب، خصوصاً أن أسلوب المؤلف كان يجمع المعرفية مع السلاسة وأن الكتاب كان مليئاً بمعلومات تاريخية مدهشة. بدأ بمقطع قصير يترجمه كل يوم وكلما سنحت له فرصة.

فتنته المقدمة التاريخية عن النخيل ومكانته عند العراقيين القدامى. كانت النخلة تحتفظ بمكانة مقدّسة فتوجد نقوش وصور تمثلها في هياكل بابل وآشور وعلى جدران المعابد ومداخل المدن والعروش والتيجان. كانوا يصنعون من التمر الأدوية و«شراب الحياة.» كانت شريعة حمورابي تقضي بتغريم كل من يقطع نخلة. وتنص مادة أخرى على ألا يهمل الفلاح بستان النخل وأن يسهر على مراقبة الطلع وتلقيحه. رمزت النخلة إلى النصر والبركة فكان الملوك يحملون سعفة بيدهم للدلالة على ذلك. خصص المؤلف أحد

الفصول للنخيل في الإسلام وذكر فيه أهمية النخل في التراث الإسلامي، من سورة مريم حيث تهز جذع النخلة كي تساقط عليها ثمراً جنياً، إلى وصف الجنّة في القرآن حيث تنتظر المؤمنين الفاكهة والنخل والرمان. ثم تطرّق إلى الحديث النبوي الذي يقول «بيت ليس فيه تمر جياع أهله.»

وبمرور الزمن أصبحت النخلة شبه مقدسة لدى يوسف أيضاً لأنه مدين برزقه لها وللملايين من أخواتها. وبالرغم من أنه لم يكن يعمل بيديه في زراعتها أوالاعتناء بها، إلا أنه قضى أكثر من نصف عمره يعمل في هيئة التمور.

٥

يوسف يضع نظارات شمسية ويرتدي قميصاً صيفياً أبيض مع بنطلون رمادي. يده اليسرى في جيب بنطلونه واليمنى على جذع نخلة باسقة حماه سعفها من شمس قويّة رسمت ظلالاً طويلة للنخلة على الأرض التي وقفت فيها صفوف من النخيل. يبدو يوسف في ريعان الشباب والقوة. الرجل الذي التقط الصورة يظهر في الصورة الثانية واقفاً بجانب يوسف. كان اسمه جاسم أبو الشوك، لكن الكل كان يسميه أبو النخل. لأنه قضى عمره يتقصى ويبحث عن كل ما يمكن أن يعرف عن النخيل في العراق وليحسن من انتاجه. كان جاسم من أبي الخصيب وكان قد بعثه أبوه، وهو تاجر غني، ليدرس في الجامعة الأمريكية في بيروت. ثم ذهب إلى جامعة بيركلي في أمريكا في بعثة على حساب الأوقاف في الثلاثينيات لدراسة البستنة. في بيركلي أكمل البكالوريوس والماجستير بامتياز وأعد أطروحة حول الأمراض التي

تصيب النخيل وعاد إلى العراق ليعمل في وزارة الزراعة وتدرّج فيها. حاضر في كلية الزراعة وأسس مزرعة نموذجية في الزعفرانية جلب إليها كل أنواع النخيل من أنحاء العراق لدراستها. تعرّف عليه يوسف أثناء زيارة طلب منه مديره أن يقوم بها لمزرعة أبو الشوك النموذجية وكتابة تقرير عنها. ثم تطوّرت العلاقة عندما بدأ يوسف يحضر المحاضرات التي كان يلقيها في كلية الزراعة، والتي سمح له مديره آنذاك بحضورها مرة في الأسبوع لتطوير معرفته. وكان يوسف يطرح الكثير من الأسئلة أثناء المحاضرة وبعدها ويبدي اهتماماً وجدية لفتا انتباه أبي الشوك. وكان من حسن حظ يوسف أنه تم تعيين أبي الشوك بعد سنتين في هيئة التمور ليصبح هو رئيس مجلس الإدارة. وازداد إعجابه بتفاني يوسف وجديته فأخذ يدعمه ويرشحه للسفر مع الوفود وينصح بترقيته. ونشأت بينهما صداقة قوية وكلما قال له يوسف «إنت أبو النخل» كان أبو الشوك يرد عليه قائلاً: «وإنت ابن النخل.» شعر يوسف بخسارة فادحة عندما استقال أبو النخل عام ١٩٦٤ بعد مشاكل سببها له رئيس الوزراء طاهر يحيى وقرر أن يتفرّغ لبساتين العائلة في أبي الخصيب ولإكمال كتاب ضخم كان يعده عن النخيل. وقال ليوسف يومها «دير بالك تره هذوله راح يخربون كل شي.» وقال له عندما عانقه بأنّه من أنقى من عمل معهم ولو كانت لديه شهادة جامعية لاستحق أن يكون وكيل وزارة أو وزيراً. لم يكن لدى أي من الذين خلفوا أبو الشوك خبرة ميدانية أو معرفة أكاديمية بالنخيل وكان التعيين دائماً قراراً سياسياً. لم يكن لديهم مفر من الاعتماد الكلي على يوسف الذي تراكمت عنده معرفة هائلة وخبرة استثنائية، وكان أقدم موظف في الهيئة. ولم تقتلعه رياح التغيير لأنه كان مستقلاً. فتغيرت الصور فوق مكتبه من الملك إلى عبد الكريم قاسم، ثم عبد السلام

عارف، وعبد الرحمن عارف، وأحمد حسن البكر، الذي أصبح يوسف في عهده، بفضل سنواته الطويلة في الخدمة، مديراً عاماً. ثم جاء صدام حسين الذي ضربت صورته رقماً قياسياً وتقاعد يوسف دون أن تتحرك صورة صدام المعلقة على جدار المكتب.

لا يذكر يوسف متى بدأ حبه للنخيل وهل ازداد بسبب عمله وكل ما قرأه عن تاريخ النخيل مبكراً في وظيفته. لكنه يذكر جيداً أنّه كان في صغره يمد يده ويقفز فلا يصل إلى عذق التمر الذي كان أبوه يشتريه ويعلقه في حوش البيت. وكان يصرخ «أريد، أريد» فتجيء حنّة وتقطف له التمور الـ«نص نص» كمّا كان يسمّيها. لم يكن عندهم حديقة في بيتهم القديم في عقد النصارى. وعندما انتقلوا إلى البتاويين، كانت هناك نخلة واحدة في حديقة البيت الصغيرة. لكن حديقة البيت الجديد، الذي أصبح الآن قديماً، والذي يعيش فيه يوسف، احتضنت فسائل ثلاث نخلات. ماتت واحدة منها وعاشت اثنتان وكبرتا مع البيت حتى صارتا أطول منه.

ولم يكن يوسف يعرف بأن أعذاقاً مثل تلك الأعذاق التي كان يمد يده ليأكل من ثمارها ستصبح مصدر رزقه وستطعمه طوال حياته. ولم يكن يعرف بأن النخل الذي كان مقدساً عند العراقيين القدامى لأنه كان مصدر الحياة وديمومتها سيرتفع عنده أيضاً إلى منزلة سامية. لم يكن هو يرى غرابة ما في الأمر، فكل من يتعمّق في تاريخ هذه الشجرة ويتعرّف على غناها لا بد أن يقع في حبها.

٦

شقيقتا يوسف، أمل وسليمة، ترتديان ملابس كردية تقليدية

مزركشة وذات ألوان بهية بمناسبة عيد نوروز، لكن الصورة لم تترجم الألوان كلها بدقة بل اختصرتها بلغة الأبيض والأسود. كانتا تقفان أمام بيت بدا بابه الخشبي الكبير واضحاً في الصورة. وتقفان في ذات الوقت على العتبتين الأولى والثانية من العقد الثاني من عمرهما. كان البيت الحجري في مدينة السليمانية التي عاشوا فيها لأربع سنوات بعد أن عيّنت حبيبة فيها كممرضة في أول تعيين لها بعد إكمالها دورة التمريض في بغداد. وسافر گورگيس ليسكن مع ابنته فمن المستحيل أن تعيش وحدها في مدينة بعيدة وغريبة في الخمسينيات من القرن الماضي. واصطحب معه أمل وسليمة اللتين واجهتا صعوبة كبيرة في المدرسة في التواصل مع زميلاتهما في البداية بسبب حاجز اللغة. لكنهما أتقنتا الكردية التي كان الكل يتكلمها هناك وظلتا تلجآن إليها أحياناً بعد عودتهما إلى بغداد عندما كانتا تتبادلان الأسرار أمام الآخرين وكان أبوهما يوبخهما على ذلك.

٧

كان يوسف دائماً يردد بأن بينه وبين صوفيا لورين قصة حب قديمة وطويلة، استمرت حتّى بعد زواجها من كارلو بونتي. وكان كل من يسمعه يقول ذلك ينفجر ضاحكاً. لكنه كان يؤكد لهم أنها ليست أحلام واحد من ملايين المعجبين، وأنهما كانا يتبادلان الرسائل وكان يلتيقها مرة كل عدة سنوات عندما كان يسافر مع وفد من هيئة التمور إلى أوروبا. كانت تجيء هي بنفسها إلى المدينة التي يكون فيها لتلتقيه. كان يضيف على ذلك للتأكيد قائلاً للمستمعين إلى قصته «تريدون تشوفون صورتي ويّاها؟ تعالوا!» كان يأخذهم إلى غرفة

الضيوف ويشير إلى صورة من الصور المعلقة تعود إلى عام ١٩٧٢، يظهر فيها واقفاً إلى جانبها وهو على وشك تقبيلها. وكان مرأى الصورة يثير ردود أفعال مختلفة بين عدم التصديق والدهشة والإعجاب، تعقبها سلسلة من الأسئلة عن تفاصيل أو صور أخرى له ولحبيبته الإيطالية. وكان يلفق هو أجوبة حسب مزاجه قبل أن يكشف بأن الصورة التقطت في متحف الشمع في لندن، وبأن صوفيا لورين التي كان على وشك أن يقبلها، كانت جامدة وباردة، على عكس حرارتها في الأفلام. وبأن محاولة تقبيلها كلفته توبيخاً من أحد الحراس لأنه خالف القوانين المكتوبة بوضوح والتي تمنع لمس التماثيل.

٨

غازي، ثاني الإخوة بعد يوسف والذي يصغره بسنة، كان الأكثر بدانة من بقية إخوته، حتى في شبابه. يرتدي بدلة غامقة مع ربطة عنق وبجانبه، سميرة، زوجته الرشيقة، ترتدي فستاناً يظهر كتفيها وذراعيها وسفوح نهديها. كانا في منتصف العشرينيات عندما التقطت الصورة عام ١٩٥٩. يجلسان خلف طاولة انتثرت عليها صحون وكؤوس وزجاجات. خلفهما رجال ونساء يرقصون في قاعة نادي الآي بي سي في كركوك. غازي عابس بلا سبب، كعادته، لكن سميرة تبتسم للكاميرا. أبقى غازي دائماً مساحة ما بينه وبين بقية العائلة، فحتّى بعد عودته من كركوك عام ١٩٦١ لم يكن يزور بيت العائلة إلا في الأعياد. كان يقترب، لكن فقط بما يكفي لكي لا تنقطع كل الصلات. ألقت حنّة باللوم على زوجته سميرة وكانت تقول إنّها

سحبته إلى أهلها عندما كانوا في بغداد، ثم أقنعته بأن يسافر إلى أمريكا بعد أن هاجر إليها ثلاثة من إخوتها. لكن يوسف كان يعرف أن غازي نفسه كان، منذ الصغر، أقل حميمية مع الجميع. وبعد سفره كانت الأخبار تنقطع لفترات طويلة، ولم يبادر ولا مرة لإرسال مساعدات كما كانت سليمة وأمل تفعلان بين حين وآخر في التسعينيات، حتى بدون أن يطلب يوسف شيئاً منهما. كان غازي يكتفي بالسؤال: «محتاجين شيْ؟» وكان يوسف يرد بسرعة أثناء المكالمة التي تأتي مرة أو مرتين في السنة: «لا، كثّر اللّه خيرك. الحمد للّه. كل شيْ تمام.»

فوجئ يوسف وحنّة عام ٢٠٠٠ بباسل، أحد أحفاد غازي من الذين ولدوا في أمريكا يتصل بهم بالهاتف ليقول إنه في بغداد مع وفد من الناشطين الذين قدموا مع أدوية لزيارة مستشفيات العراق وكسر الحصار رمزياً. وبالرغم من أنّ باسل، الذي كان في العشرين من عمره، كان قد ولد وعاش في أمريكا، إلا أنّه تكلم معهم العربية بطلاقة. باستثناء طريقة لفظ صوتي اللام والراء. فحاز على «پهاء» تعجّبيّة من حنّة كانت تتفوّه بها عندما يبهرها شيء خارق. درس باسل العلوم السياسية في جامعة يو سي إل أي في كاليفورنيا وبدأ يهتم بتاريخ العراق ومنطقة الشرق الأوسط. تسيّس في سنوات الجامعة ونشط مع مجموعة في مدينة لوس آنجلس تعمل لرفع الحصار. وتطوع ليكون عضواً في الوفد الذي زار عدداً من المستشفيات وملجأ العامرية والمتحف العراقي. ألح يوسف وحنّة عليه كي ينام عندهما لكنه كان ملتزماً بنشاطات الوفد وكان ينام معهم في الفندق. لكنه حرص على أن يزورهم أكثر من مرة وطبخت له حنّة كبة حامض وبرياني ونام عندهم الليلة الأخيرة قبل عودته إلى

كاليفورنيا بعد أن أعدوا له حفلة صغيرة حضرها كل من كان قد تبقى من الأهل للاحتفاء بالمغترب العائد.

٩

إلياس، الأخ الثالث، في بدايات الثلاثينيات. شعره أسود فاحم يرتدي بدلة سوداء أنيقة وابتسامته مشرقة على وجه نضر. شاكي، زوجته الأرمنية، ترتدي بدلة العرس البيضاء وقفازين طويلين يصلان إلى أعلى ساعديها. يمسكان بأيدي بعضهما البعض ويبتسمان. تعرّف عليها إلياس عن طريق نشاطه السياسي حيث كانت شقيقة مانو، أحد رفاقه. لم يفاجأ يوسف حين تورط إلياس بالسياسة وأصبح شيوعياً. كان دائماً يجادل منذ أن كان طفلاً، حتى أنهم سمّوه «عريضي» أو «سچينة خاصرة» لأنه كان دائماً يعترض وينتقد كل شيء. وكان يحب الحياة أكثر من الجميع بالرغم مما عاناه خلالها، فكان يرقص ويدبك في الأعراس مع الشباب ويتركون الساحة متعبين دون أن يتعب هو فيظل وكأس العرق في يده. ترك السياسة بعد سنوات طويلة في السجن. لكنهم ظلوا يراقبونه ويلاحقونه. آخر مرة دخل فيها السجن كان يعمل مستشاراً قانونياً مع شركة يوغسلافية كانت مسؤولة عن مشاريع إعمار في الثمانينيات. طلب منه المدير تسليم مظروف إلى أحد الموظفين ففعل. فكتب أحد العراقيين الذين يعملون في الشركة تقريراً يتهمه فيه باستلام رشوة من الأجانب. كلفه التقرير ثلاث سنوات في السجن. لكن السجن لم يكسره. أتعبه فقط. فظل جسده قوياً لكن عقله تعب من هذه الحياة، خصوصاً في سنوات الحصار. فبدأ ينسى كثيراً، حتى أبسط الأمور.

كان يخرج من البيت ليتمشى عصراً كما اعتاد وكان أحياناً يضيع. بدأت زوجته تصر على أن تمشي معه. غافلها، ذات يوم، عام ١٩٩٩، وخرج بالبيجامة عندما كانت نائمة ولم يعد. بحثوا عنه في كل المستشفيات ومراكز الشرطة لأيام دون جدوى. ثم وجدوه بعد أسبوع في الطب العدلي. كانت الجثة قد وجدت في زقاق يتفرع من شارع الرشيد. عندما استفسروا من الناس الذين يسكنون هناك والذي وجدوه فيه، قالوا لهم إنّه كان يحوم في المنطقة ولم يفهم أحد منه ما الذي كان يريده أو يبحث عنه. لم تكن محفظته أو هويته معه. بعد يومين وجده أحدهم متكئاً على الحائط وكان قد مات من العطش والجوع. تغيّر الناس في زمن الحصار والقحط وانشغل كل واحد بهمومه فلم يستفسر منه أحد أو يعرض عليه المساعدة. لم يفهم أحد لماذا ذهب إلياس إلى تلك المنطقة بالذات. في اليوم الثالث من العزاء جاء أحد أصدقائه القدامى ليقدم التعازي. وبعد أن سأل عن ظروف وفاته وهو يشرب القهوة، قالوا له عن الشارع الذي مات فيه، فأدمعت عيناه وقال: «شوف سبحان اللّه! چان أكو هناك بيت ولد چانت خليّتنا تجتمع بيه أيام العمل السرّي» كان الألزايمر أو الخرف قد محا كل شيء إلا وكر الحزب. لم تجد زوجته عزاء في القصة، بل كررت ما كانت تردده عن أن السياسة لم تبق لها شيئاً، قتلت أخاها الذي أُعْدِم عام ١٩٧٩ ثم أنهكت عقل زوجها.

١٠

يوسف يجلس على رأس طاولة كبيرة مليئة بالأطعمة وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة وهو يرفع كأس العرق المليئة

والتي كانت على وشك أن تقبّل كأساً أخرى احتضنتها أصابع أخيه جميل الذي جلس إلى يمينه. سامية، زوجة جميل اللبنانية، تجلس إلى جانب زوجها. كانت لم تزل تحتفظ بجمالها الأخّاذ الذي لم يقطف منه العقد الرابع من عمرها إلا القليل. ترفع كأسها هي الأخرى وتنظر إلى الكاميرا بابتسامة عريضة تكشف عن أسنانها. أمّا حنّة التي كانت تجلس إلى يسار يوسف، فكانت الوحيدة من بين الكبار في الصورة التي لم تكن كأسها طافحة بالعرق. كانت كأسها مليئة بالمشروب الغازي الذي جاء به النادل بعدما قال له جميل باللبنانية التي كان قد تبنّاها: «مَنّا سكرجية متلنا. جيبلا كولا، هي والصغير بيشربو كولا.» كان فادي، الصغير الذي جلس بجانبها، في الخامسة، قد مد رأسه إلى الأمام كي يتأكّد من أنه سيكون في إطار الصورة. لا يظهر في الصورة داني، الذي يصغره بسنتين، لأنهم تركوه مع جدته في بيتها. طاولة كازينو زحلة الجميل، الذي يمر بجانبه غدير صغير، وتحيط به أشجار وارفة، كانت عامرة بالمازات اللذيذة. حنّة تبتسم فهذه أول مرة ترى فيها جميل بعد خمس سنوات من الفراق. كان بعض الشيب قد بدأ يغزو شعره لكنه لم يكن قد تغير. مرت الأسابيع الثلاثة كأنها ثلاثة أيام. زارت فيها حنّة مزار سيدة حريصا وصلّت في الكنيسة التي تقع عند قدمي التمثال الضخم الذي يقف على قمة جبل. وظلت تعاتبه وزوجته على عدم زيارتهم لبغداد، لكن سامية كانت تقول لها: «شو حنّة، يعني بدّك خيّك ينسجن لو ينعدم؟» وكانت حنّة ترد عليها متّهمة إياها بالمبالغة: «شنو سجن. روحي. شقد تبالغين.» ظلت حنّة تذكر تلك السفرة التي رافقها فيها يوسف بسيارات النيرن الضخمة التي كانت تنطلق من بغداد وتصل بيروت بعد يوم بعد أن تتوقّف في عمان ودمشق. كان

الجو متوتّراً في لبنان لكن لم يخطر ببال أي منهم بأن حرباً أهلية ستنشب وتحرق البلد، وبأنهم لن يروا بعضهم البعض ثانية حتى عام ٢٠٠١ في عمّان، حين وافق جميل على أن يأتي من بيروت بعد أن بكت حنّة وهي تلح عليه على الهاتف قائلة: «عيوني خلّيني أشوفك قبل ما أموت.»

١١

عندما أكملت سليمة، الأخت الوسطى، المدرسة الثانوية بتفوق عام ١٩٥٦ كان وضع العائلة الاقتصادي قد تحسّن كثيراً. فراتب يوسف وما تقتطعه حبيبة من راتبها من التمريض وما يبعثه غازي من كركوك كان يوفّر لهم حياة جيدة. كان اليسوعيون قد افتتحوا للتو جامعة الحكمة في الزعفرانية، فاقترح يوسف على سليمة أن تتقدم بطلب الدخول إليها وفرحت كثيراً عندما قال لها إنه سيتكفّل بالأقساط. كانت دائماً تحلم بأن تصبح مهندسة وهذا ما درسته في جامعة الحكمة التي تخرّجت منها عام ١٩٦٠. كان الكل فخورين بها وحضروا حفل التخرّج في الزعفرانية الذي حضره الزعيم، عبد الكريم قاسم، وصافح المتفوقّين والمتفوّقات وسلمهم جوائز خاصة. كانت سليمة تحب الزعيم وتدخل في جدالات مع حنّة التي كانت تحب الملك فيصل وتقطّع قلبها للطريقة التي قتل بها هو والعائلة المالكة. لكن سليمة كانت تصر بأن الزعيم لم يكن من أصدر الأوامر، بل عبد السلام عارف. وبعد أن قتل هذا الأخير عبد الكريم قاسم بعد ثلاث سنوات، نسيت حنّة عداوتها وأخذت تبكي الزعيم وتتحسّر على أيامه.

سليمة ترتدي فستاناً أسود اشترته خصيصاً للمناسبة على الرغم من أن حنّة قالت لها إنّه قصير أكثر من اللازم. كان يكشف عن ركبتيها، خصوصاً عندما تجلس. لكن الروب الجامعي تكفّل أثناء الحفل بتغطية ركبتيها وتوثّب نهديها. أجبرها الكعب العالي الذي انتعلته على أن تصعد إلى المنصة ببطء. ارتبكت قليلاً وابتسمت وهي تصافح الزعيم وتستلم منه الشهادة التقديريّة الخاصة التي سلمه إياها العميد وتشكره. لم تصدق يومها بأن الزعيم بنفسه قال لها «ألف مبروك بنتي.» تلك كانت اللحظة التي غمزت فيها الكاميرا عينها.

١٢

أمل، أصغر الأخوات، ترتدي فستاناً أبيض ويغطي رأسها «إيشارب» بنفس اللون. رأسها محني، تنظر إلى الطفلة التي كانت قد دخلت للتو شهرها الثاني تبكي في حضنها. كانت أمل في العشرين من عمرها ولم تكن قد تزوجت أو أنجبت بعد، ولن تتزوج إلا بعد سنوات من إكمال دراسة الإدارة والاقتصاد في الجامعة. لكن حبيبة اختارتها لتكون عرّابة ابنتها الثالثة، مي، التي أعقبت ولديْن. تقف أمل أمام حوض صغير مليء بالماء. يد المطران مرتفعة في الهواء ترسم صليباً لامرئياً يبارك الماء الذي في الحوض والذي ستتعمّد فيه مي كما تعمّد المسيح في نهر الأردن. حبيبة تقف إلى يمينها، ترتدي فستاناً مزركشاً وتغطي رأسها بإيشارب غامق مثل كل النساء في الكنيسة، ويدها ممدودة تحاول إسكات مي التي كانت تبكي بصوت عال كقطّة تخاف من الماء. أما والد الطفلة، عبد، فيقف إلى يمين

أمل وقد شبك يديه خلف ظهره وعلى وجهه ابتسامة عريضة. كانت هذه أول مناسبة عائلية يستخدم فيها يوسف كاميرا اللايكا الباهظة الثمن التي اشتراها أثناء سفرة مع وفد من هيئة التمور إلى بون عام ١٩٦١. أخذ عشرات الصور داخل الكنيسة وفي باحتها وفي حديقة البيت الخلفية حيث احتفلوا بالمناسبة. لكن هذه الصورة هي الوحيدة من بين كل تلك الصور التي اختار أن يعلقها على جدار غرفة «الخطّار». أمّا البقية ففي الألبومات والصناديق المليئة بمئات الصور. كان لؤي، زوج مها، قد اقترح عليه أكثر من مرة أن يأخذ الصور ويعمل لها «سكاننگ» في مكتبه لوضعها على قرص مدمج أو على الفيسبوك، لأن الأقرباء المبعثرين في الشتات يحبّون أن يروها، لكن يوسف كان يؤجل الموضوع.

١٣

ميخائيل، أصغر الذكور، كان الابن المدلل الذي احتكر قلب گورگيس، ربما لأنّه قضى معه وقتاً أكثر مما قضاه مع بقية أولاده. كان گورگيس قد تعثر وسقط أثناء واحدة من سفراته وأصيب في ظهره وأقعده الألم في البيت. وكان ميخائيل، أو ميخا، كما كان يحب أن يسميه، شقياً وذكيّاً وسليط اللسان، فكان يُضحِك أباه كثيراً ويظل يداعبه ويدهشه بأسئلته وذكائه. ولم يكن گورگيس يرفض له طلباً فكان دائماً يعطيه مما في جيبه من نقود كلما طلب ليشتري ما يحلو له. ولم تنفع تحذيرات حنّة من أن كل هذا الدلال سيفسده. كان يقول لهم بأن الولد يتيم بلا أم. وكأن البقية لم يكونوا بلا أم. عندما مات گورگيس في نومه، كان ميخائيل الأكثر حزناً عليه ولم

يستفق من تلك الصدمة إلا بعد أشهر. كان قد تخرّج من ثانوية كلية بغداد مثل يوسف وجميل، وبدأ يعمل مع شركة بريطانية في منطقة الـ«إچ ثري» بالقرب من الحدود الأردنية وكان يعود مساء كل خميس إلى بغداد. وعرف حين عاد ذات خميس بأن مكروهاً قد حدث عندما لم ير أباه جالساً على الكنبة في غرفة الجلوس. فقد كانت مستقره الدائم وكان يفضل النوم عليها بدلاً من السرير الذي في غرفة النوم. لكنه رآهم يغسلون جسده ويستعدون لأخذه إلى كنيسة أم الأحزان في الصباح التالي ليصلوا عليه قبل أن يدفنوه في مقبرة ساحة الطيران.

انصرف بعدها ميخائيل إلى ملذات الحياة وكأنه أخذ على عاتقه أن يدلل نفسه بنفسه أكثر بعد أن غاب من كان يدلله. وكان راتبه العالي يسمح له بالتبذير والسكر والعربدة. كان يرد على شكاوى إخوته قائلاً إنّه يساهم في مصاريف البيت وهو حر في تمضية وقته كما يشاء. كان غالباً ما يعود في ساعات الصباح الأولى ويكون قد نسي المفتاح فينادي على أمل، الصغرى، والأقرب له، فتستيقظ وتنزل من السطح حيث كانوا ينامون في الصيف لتفتح له الباب.

هذه الصورة التي أخذت مكانها على الجدار كانت، مثل معظم الصور التي التقطت له، تظهره يدخن أو يشرب أو يرقص. يبدو فيها شاباً وسيماً في منتصف العشرينيات بشعر أسود قصير يقف جنباً إلى جنب مع صديق له أمام سيارة هذا الأخير ويبدو خلفهما طاق كسرى في الأفق والذي كان موضعاً محبّباً للسفرات والرحلات. يتكئ الاثنان على مقدمة السيارة وقد رفعا زجاجتي بيرة. هكذا أراد يوسف أن يتذكر أخاه، شاباً وسيماً بشوشاً. عندما كانت حنّة تطلب من ميخائيل أن يقلّل من الشرب، كان يقول لها إنّ أعجوبة المسيح

الأولى كانت تحويل الماء إلى خمر في عرس قانا الجليل وفي ذلك إشارة ما لمن يفهم! كان ميخائيل بارعاً في تعلّم اللغات، فإضافة إلى الإنكليزية التي أتقنها مع الفاذريّة في ثانوية كلية بغداد، فإنه تعلم الألمانية بعد عمله مع شركة زوبلن في سد سامراء لعدة سنوات. ثم عمل لمدة سنتين وسيطاً بين مجموعة شركات أسترالية للحصول على عقود في العراق. ورست على المجموعة مناقصة لتنفيذ مشاريع تطوير القطاع الزراعي في العراق. كانت نسبة ميخائيل في حال توقيع العقد ١٪، لكنها كانت ستضمن له العيش بترف، هو وعائلته لبقية حياته لأن المبلغ الإجمالي للمناقصة كان بالملايين. وقبل ساعة من مراسيم توقيع العقد، غيّرت الحكومة العراقية رأيها بسبب فقرة في العقد تنص على أنّها ستكون مسؤولة عن الخسائر المترتبة في حال وقوع كوارث طبيعية. انهار المشروع وأصيب ميخائيل بعدها بكآبة شديدة. ظل منعزلاً في البيت لمدة سنة لا يعمل. وحتى عندما عاد إلى الحياة الطبيعية بعد ذلك، بعد أن ألح عليه أصدقاؤه وساعدوه في العثور على وظيفة مع السفارة الاسترالية، فإنه لم يشف أبداً من تلك الصدمة. كان يتجه بعد نهاية الدوام كل يوم من السفارة في منطقة عرصات الهندية إلى نادي العلوية ليشرب مع ندمائه. يعود مخموراً في الثامنة أو التاسعة ويتناول العشاء ثم ينام في غرفته وحده. حتى زوجته تركت غرفة النوم لأنها لم تعد تحتمل سكره اليومي ولا شخيره. لم يعد يحضر المناسبات العائلية أو يزور الأقارب إلا فيما ندر. وظل يبكي على أطلاله وتلك الفرصة الذهبية التي ضاعت وأضاعت أحلامه حتى أصبح هو نفسه طللاً. ولم يأبه لنصائح الأطباء وتحذيراتهم بأن الشرب اليومي والإفراط في التدخين سيقتله، بل كان يتبجح بأن الطبيب قال له عام ١٩٦٧ إنه إذا لم

يتوقف عن التدخين فسيموت بعد سنة، لكنه لم يمت. فكان يقول إنّه راوغ عزرائيل وأضاع عليه الطريق. لكنه وصل، كعادته، في نهاية الأمر ليجبي ضريبته.

١٤

الصورة الوحيدة التي كانت بالألوان على هذا الجدار كانت تحتضن في إطارها معظم أغصان العائلة وكل ما حملته من ثمار وتعود إلى صيف عام ١٩٩٠. كانت المناسبة حفل المناولة الأولى لوسام، حفيد سليمة، الابن البكر لمي، والتي لم يكن بيتها الصغير في البلديات يتسع لكل الضيوف الذين يحضرون مناسبة كهذه. فطلبت سليمة من يوسف وحنّة أن تكون الحفلة في حديقة بيت العائلة ووافقا. باستثناء جميل الذي كان في لبنان، وغازي الذي كان في أمريكا، كان كل أولاد گورگيس حنّا بهارتلي وأولادهم وأحفادهم في هذه الصورة. ولم تجمعهم صورة بعدها أبداً. فبعد غزو الكويت الذي وقع بعد أقل من شهر من تلك الحفلة، جاءت حرب أخرى واصطحبت معها الحصار الطويل. وبدأ الإخوة والأخوات يتساقطون من شجرة العائلة لتجرفهم الريح إلى الغربة. أو لتبتلعهم الأرض في قبر العائلة الذي اشتروه في مقبرة الكلدان الجديدة على طريق بعقوبة، لأن مقابر بغداد ازدحمت بالموتى ولم يبق موطئ قدم. ميخائيل كان أول الراحلين. مات بالسكتة القلبية في آخر يوم من ١٩٩٠، قبل الحرب بأسابيع. كأنه كان يعلن بموته أن عقد التسعينيات سيكون بداية الموت والهجرة للعائلة. عشّش السرطان في عظام حبيبة وقتلها بعده بسنة ونصف. الحر والخرف قتلا إلياس.

وتبعثر البقية وأحفادهم في المهاجر، وخصوصاً بعد ٢٠٠٣، بين السويد وكندا ونيوزلندا.

١٥

توزعت بقية الصور فوق التلفزيون وعلى بعض جدران البيت. وهناك غيرها مئات من الصور في الألبومات وفي مظاريف وأكياس في غرفة النوم الثالثة في الطابق الأرضي. الغرفة التي تحولت بمرور الزمن إلى مخزن، خصوصاً في أواخر التسعينيات وبعد ٢٠٠٣. فكل من كان قد قرر الهجرة من الأقارب كان يبيع ما يمكن بيعه ويحمل معه ما تيسر، ثم يترك بعض الحقائب والحاجيات في بيت العائلة على أمل إرسالها في المستقبل بطريقة ما. لكن الحقائب والصناديق تراكمت وعلاها الغبار وما زالت تنتظر من يعود ليحملها إلى بيوتها الجديدة بعيداً عن بغداد.

كانت هناك صورة واحدة يحتفظ بها يوسف في ظرف صغير في دولاب في غرفته. لم يخرجها منه منذ سنين. لكنه يحتفظ بنسخ معلقة في كل مكان على جدران قلبه وروحه كان يمر بها كثيراً فيما مضى. وبالرغم من أن الكثير من زوايا قلبه قد غرقت في عتمة خريف العمر، إلا أنها كانت تضيء نفسها بين حين وآخر عندما تستيقظ الذكريات. تتغير بعض التفاصيل في هذه الصور التي لا يراها سواه، لكن هناك عناصر أساسية. امرأة تبتسم. دائماً يراها وهي تبتسم. ويلمع صدى الابتسامة الحلوة في عينيها اللتين كانتا بلون الشوكولاتة التي كان يحبّها. شعرها أسود طويل يخبئ أحياناً الأقراط التي كانت تنتقيها بعناية. أحياناً يراها تضحك ويرى أصابعها الطويلة

تغطي فمها، مع أن أسنانها كانت جميلة، بيضاء ومنتظمة. دلال. اسم على مسمّى. قلبت عالم يوسف رأساً على عقب عندما تم تعيينها في الهيئة عام ١٩٧٧. كانت قد عادت للتو من بريطانيا بشهادة الماجستير في الهندسة الزراعية من جامعة إدنبره، وتم تنسيبها لوظيفة استحدثت في قسم التخطيط الميداني. كان التركيز في سياسة الدولة ينصب على النفط واقتصاده وكانت بعض التحوّلات الأخرى قد أثّرت على التمور وجاءت على حساب العناية بها وببساتين النخيل. تزايد عدد المهاجرين من الريف وأهمل الكثير من البساتين. وبدأت دول أخرى تنافس التمور العراقية في الأسواق العالمية بعدما كان العراق بلا منافسين. وكان من أولى مهمّات دلال في عملها الإشراف على وضع دراسة شاملة حول وضع النخيل في العراق بالتنسيق مع فروع الهيئة في المحافظات.

استحوذت على قلبه من أول يوم دخلت فيه إلى مكتبه برفقة مدير الإدارة، أبو شكري، كي يعرفها عليه. كانت ترتدي جاكيتة زرقاء بدا من تحتها قميص أبيض وتنورة أفتح بقليل من الجاكيتة تقف عند الركبتين. جوارب سوداء وحذاء بكعب متوسط الطول. كانت أناقتها متميزة دون أن تكون باذخة أو صارخة. مكياج خفيف وسلسلة حول عنقها تنتهي بقرآن ذهبي.

«الأستاذ يوسف، مدير قسم التصدير، الآنسة دلال، متعينة جديد، اليوم أول يوم إلها ويّانا ودا أعرّفها عالكل.»

نهض ومد يده ليصافحها. ارتسمت ابتسامة على وجهها تحرّك معها حاجباها. صافحته بقوة وثقة، على عكس بعض النساء اللواتي تكون يدهن مرتخية وبلا حرارة فيندم المرء على مصافحتهن. خرجت لكن عطرها ظل في مكتبه، حتى بعد أن سد مدير الإدارة

باب المكتب وراءهما. نظر يوسف إلى قامتها الممشوقة وهي تخرج. حاول أن يعود إلى الأوراق التي كانت أمامه، لكن عطرها، رسول أنوثتها، كان يوشوش في رأسه وغيوم أنوثتها بللت وبلبلت أفكاره. رفع راحة يده إلى أنفه واستزاد من ذاك العطر الذي سيشمه بعدها كل صباح عندما يمر بمكتبها الذي كان، لحسن حظه، في الطابق نفسه.

كان يوسف في منتصف العقد الرابع، بلا زوجة أو أطفال. رصيده نزوات لا بأس بها وليال نؤاسية في الملاهي، وقصة حب حزينة مع ابنة خالته، نجاة، عندما كان في العشرين. عشق نجاة بجنون وأراد أن يتزوجها وكان الاتفاق بين العائلتين هو أن تتزوج هي يوسف وأن يتزوج غازي، أخوه، أختها الصغرى، حياة. لكن حياة لم تكن قد حظيت بربع مفاتن نجاة، وغازي كان قد وقع في غرام امرأة أخرى أصر على أن يتزوجها. زعل أهل نجاة من قرار غازي ورفضوا تزويج نجاة ليوسف. وحدثت قطيعة بين العائلتين استمرت حتى وفاة گورگيس حين حضر أبو نجاة العزاء. كانت نجاة قد تزوجت من رجل آخر ورزقت بطفلين. ظلا، هي ويوسف، لسنوات يتبادلان نظرات تقول الكثير أثناء المناسبات. نظرات تحمل بقايا رغبة وتساؤلات خرساء عمّا كان يمكن أن يكون. لكنهما لم يتخطيا أبداً حدود الرسميات والسؤال التقليدي الذي تعقبه إجابة أكثر تقليدية. ظنّ يوسف بأن نجاة كانت حب حياته وبأنه لن يحب امرأة أخرى كما أحبها. لم يفكّر ثانية في الزواج والأولاد، خصوصاً أنه يحب إيقاع حياته وحريته، وأنه لم يلتق بامرأة تغريه بتغييره.

لكن دلال أربكت كل حساباته. حاول، في البداية، أن يعقلن ويكبح مشاعره ورغباته نحوها. فقد كانت تصغره بأكثر من عشرين

سنة، ومن المستحيل أن تنجذب إلى رجل بعمر أبيها. كما أنّها كانت مسلمة وهو مسيحي وهذا يعني جبالاً اجتماعية شاهقة الارتفاع لا بد من تسلّقها. كما أنها كانت تحمل شهادة ماجستير وهو، بالرغم من مركزه المرمرق، لم يكن يحمل شهادة جامعيّة. وانتظمت كل هذه الأسباب الموضوعية لتكون درعاً تخفي هشاشته وتحميه من أي خيبة أمل هو في غنى عنها. لكن الدرع سقطت بسرعة ووجد يوسف نفسه أعزل، ورأى قلبه يطير كريشة كلما مرت هي أمامه، أو مر ذكرها في باله.

دخلت مكتبه لاستفسار في أول أسبوع من عملها فرأت زهرة الرازقي التي كان يضعها على مكتبه. أبدت إعجابها بها وبرائحتها، فقال لها بفخر بأنها من حديقته وتجرأ في الصباح التالي على أن يعطيها واحدة، فاحمرت خجلاً عندما شكرته.

كان يقرأ في نظراتها في البداية تجاوباً ما مع مشاعره التي لم يبح بها. لكنه كان يبدد أفكاره بسرعة ويقول لنفسه إنها محض أوهام. رآها ذات مرة وهو يعود بسيارته بعد انتهاء الدوام بالقرب من البناية التي يعملان فيها، تمشي تحت المطر وقد وضعت جريدة فوق رأسها. تردّد في البداية، لكنه أوقف السيارة وأنزل الشباك وناداها وعرض أن يوصلها. شكرته في البداية ورفضت بأدب قائلة «ماريد أعذْبَك.» لكنه أصرّ قائلاً: «بس حرام إنتي تِتْعَذبين بالمطر.» وفتح الباب، فوافقت وركبت وجلست بجانبه. كان المطر ضيفاً مفاجئاً لم يتوقعه أحد ذلك اليوم وكان الجو دافئاً. لم يفرح يوسف يوماً بالمطر كما فرح به في ذلك اليوم. كان خيراً على يوسف لأنه بلل شعر دلال وقميصها بحيث التصق على جسدها وأبرز نهديها الكمثريين بوضوح. وبانت ركبتاها بعد أن جلست داخل السيارة فحاولت إنزال التنورة ثم

وضعت حقيبتها فوقهما. وكان مطر ذلك اليوم خيراً لأنه حفر الأرض بينهما وربط الجداول الصغيرة ببعضها البعض.

سألها أسئلة عامة عن دراستها وعن السنتين اللتين قضتهما في بريطانيا. كانت البنت الوحيدة في العائلة، مع شقيق أكبر منها كان يعمل طبيباً. أما والدهما فكان أستاذاً في كلية الهندسة بجامعة بغداد وكان قد حصل على الدكتوراه من أمريكا. استفسرت هي الأخرى عن تاريخه الوظيفي وبعض الأسئلة الشخصية، لكن الوقت مر بسرعة. اعتذرت منه وهي تطلب أن ينزلها على بعد عدة شوارع من البيت في حي المهندسين وليس أمامه لتتجنّب، كما قالت، أسئلة الجيران والإشاعات. «مجتمعنا متخلّف» أكد لها بأنه يتفهم الموقف.

بدأ ينتهز الفرص لتوصيلها واقترح عليها ذات مرة أن يذهبا إلى مطعم عندما قالت إنها جائعة فوافقت. كان يستمتع بالوقت الذي يمضيه معها وبأحاديثهما التي كانت تستمر حتى بعد أن يوقف السيارة لينزلها في المكان المعتاد. فكّر كثيراً قبل أن يأخذ خطوة أخرى تنقل علاقتهما إلى مرحلة أكثر حميميّة لأنه كان خائفاً من ابتعادها. قالت له ذات مرة كم تفتقد نزهاتها بجانب النهر الذي كان يمر بالبلدة الصغيرة التي تقع بالقرب من جامعتها في بريطانيا، فاقترح عليها أن يخرجا في نزهات في بغداد ولم تمانع. كان يأخذها إلى حدائق المسبح أو الفحامة وبدآ يلتقيان خارج ساعات الدوام في المساء، خصوصاً بعد أن اشترت، بمساعدة أبيها، سيارتها الخاصة. كانت تقول لأهلها إنّها ذاهبة لتلتقي إحدى صديقاتها. لم تمانع عندما أمسك بيدها لأول مرة وهما يجلسان في سيارته، بل ضغطت على يده بقوة. تطوّر الأمر إلى قبلات حارة ولمسات يتبادلانها في السيارة بعد أن كان يركنها هو في واحد من تلك الأماكن التي كانت تعد على

الأصابع والتي أصبحت، دون تخطيط مسبق، موقفاً لسيارات العشاق، في الفحامة أو في نهاية شارع أبي نؤاس من جهة الجادرية. كان من المستحيل أن يأخذها إلى البيت وحنّة تجلس هناك على مدار الساعة باستثناء الصباح عندما تتسوّق بعد الكنيسة.

جنّ يوسف بحبها إلى حد أنه كان مستعداً لأن يخاطر بكل شيء من أجل أن يكون معها. فكان مستعداً أن يشهر إسلامه إذا اقتضى الأمر، فالتوقيع على ورقة أو التلفظ بعدة كلمات لم يكن يعني الكثير. عرض عليها أن يتزوّجا وفاتحت أباها بالموضوع لكنه غضب، ورفض رفضاً قاطعاً بعد أن سمع إجابتها على سؤالين. قال لها إنّه لن يوافق على زواجها منه حتى لو أشهر يوسف إسلامه، فهو لا يناسبها إطلاقاً لأنه أكبر منها بكثير وليست لديه شهادة، واستغرب أن تكون بهذه السذاجة. لم تكن دراسة أبيها في أمريكا قد غيّرت تفكيره المتحجّر. أما يوسف فلم يفاتح حنّة، فقد كان يعرف رأيها مسبقاً بالزواج من غير المسيحيين مما كانت تقوله عن أولئك الذين يغامرون ويقترفون الفعل المشين، وهو الرفض القاطع. وكان زواجه من دلال، لو ترجم من رغبة وحلم إلى حقيقة، سيكسر قلب حنّة وقد يقتلها ويمزق العائلة بأكملها. وبالرغم من الرفض على الجانبين عرض يوسف على دلال أن يتزوجا سراً. فكرت لعدة أيام وبكت كثيراً عندما قالت له ورأسها على صدره «أحبّك، بس ما أگدر أعوف عائلتي وأهلي وأعيش خارج المجتمع.»

قررا أن يكونا صديقين وكان ذلك مستحيلاً، فالحب لا يتبخر هكذا ويتحول إلى صداقة بمجرد تغيير اسم العلاقة. تدارك أبوها الموقف ورتّب من خلال علاقاته موضوع إبعادها عن يوسف. فصدر بعد شهرين أمر وزاري بنقلها إلى دائرة أخرى في وزارة الزراعة.

التقيا مرتين أو ثلاثاً بعدها لكنهما قررا أن يقطعا العلاقة. غلبه الحنين بعد ذلك بسنة ونصف فخرج من الدوام قبل نصف ساعة وأخذ يحوم بسيارته حول مكان عملها الجديد علّه يراها. سقط قلبه من صدره وشعر وكأنه توقف لدقائق عندما رآها تقف أمام البناية. كان بطنها منتفخاً. بعد دقائق توقفت سيارة كان يسوقها الرجل الذي كانت دلال تحمل ابنه أو ابنته في بطنها واستقلتها وركبت بجانبه.

أصيب يوسف بكآبة شديدة بعد ذلك اليوم. كان يعرف بأنها لن تكون له أو معه، لكن رؤيتها وهي حامل كانت برهاناً قاسي الوضوح على أنها لم تعد دلاله هو. ظلت تلك الصورة تؤرقه لأشهر، لكن انتفاخ البطن زال وحلت محل تلك الصورة في ذاكرة يوسف صورة دلال وهي تشم زهرة الرازقي التي كان يعطيها إياها، أو ابتسامتها وهي تجلس إلى جانبه في السيارة وشعرها يطير في الهواء مثلما طار قلبه كريشة. ولم يعد يعرف أين انتهى بها الدهر؟ فوق الأرض أم تحتها؟ في العراق أم في الشتات؟

أن تعيش في الماضي

١

قررتُ أن موعد لقائي الشهري بسعدون، آخر من تبقّى على قيد الحياة من أصدقائي، الذي اشتقت إليه في الأيام الأخيرة، قد حان. كنت تعرّفت عليه بالصدفة قبل أكثر من ثلاثين سنة في مباراة كرة قدم في ملعب الشعب بين ناديَيّ الزوراء والميناء عام ١٩٧٩. جلسنا جنباً إلى جنب في المقصورة في تلك المباراة المشؤومة التي أصيب أثناءها نجم الزوراء فلاح حسن وكسرت ساقه. انفرد فلاح في منتصف الشوط الثاني بحارس مرمى الميناء الذي تقدّم نحوه وتصدى له بقوة. قفز فلاح برشاقة ليتفادى ضرب رأس الحارس بقدمه فسقط على الأرض بزاوية مائلة ولم ينهض. عندما اقترب منه ثامر يوسف، زميله في الهجوم، ورأى ساقه المكسورة، غطى وجهه بيديه وبدأ يبكي. تجمّع لاعبو الفريقين حول النجم الساقط. وقف الجمهور على المدرجات وخيم الصمت والوجوم على الملعب. وبكى الكثيرون، ففلاح كان نجماً دولياً واللاعب الأكثر شهرة في العراق. وضعوه على سدية وحملوها إلى سيارة الإسعاف التي دخلت إلى الملعب من البوابة الجانبية لتأخذه إلى مستشفى مدينة الطب.

كان الهوس بالزوراء والحزن على «أبي تيسير» والخوف على مصيره ومصير الزوراء بدون قوته الضاربة في الهجوم، هو الذي

جمعنا ونسج أول أحاديثنا. وعلى الرغم من أن الزوراء فاز في تلك المباراة بهدف واحد إلا أن سعدون ظل مكتئباً وقال محدّثاً نفسه بصوت عال كأنه يعلنها للملأ قبل نهاية المباراة: «واللّه لا أسكر من القهر اليوم.» فقلت متضامناً معه: «إي، صُدُگ، ينرادلها سَكْرَة.»

خرجنا معاً بعد نهاية المباراة ومشينا مع الجموع الغفيرة باتجاه ساحة الأندلس ونحن نواسي بعضنا البعض. دخلنا أول مشرب صادفناه وبقينا نشرب لثلاث ساعات. استعدنا شريط صولات فلاح حسن وأجمل أهدافه، وتحسّرنا على حظه وحظ الزوراء السيئ بأن يصاب إصابة بدت بليغة، قد لا يعود بعدها إلى اللعب وهو في قمة عطائه. لكنني أصررت يومها على أن ينتهي لقاؤنا الأول بروح تفاؤلية، فرفعت كأسي معلناً بأن النخب الأخير «بصحة أبو تيسير. إنشالله يگوم بالسلامة ويرجعلْنا.» فوافقني سعدون ونظر إلى الأعلى وهو يكرر الجملتين كأنهما دعاء إلى آلهة الخمر. سافر فلاح حسن إلى بريطانيا للعلاج ونشرت مجلة «الوطن الرياضي» بعد شهرين صوره مع الأخصائيين البريطانيين وهو يخضع للعلاج الطبيعي كي يستعيد لياقته. وعاد بعدها بنصف سنة وركع ليقبّل أرض ملعب الشعب في مباراة حضرناها معاً بعد أن أصبحنا صديقين حميمين. وأدمعت عينا سعدون يومها وهو يصيح «أروح فدوة لهالصلعة الذهب» مشيراً إلى رأس فلاح حسن. ربما أتذكّر هذا كله اليوم لأنني قرأت أن فلاحاً، الذي كان قد عاد قبل شهرين بصورة نهائية إلى العراق بعد عقدين من الغربة في أمريكا، سيرشح نفسه لرئاسة اتحاد كرة القدم.

كان سعدون أيامها يدرّس اللغة العربيّة في مدرسة ثانوية ويملك مع أخيه محلاً لبيع القرطاسية في الكرادة كانا قد ورثاه عن أبيهما.

دعاني للانضمام إلى «جمعية الخيام» وجلساتها الأسبوعية. وأصل التسمية أن مشرب فندق الخيام كان، وظل، لأكثر من عقد ونصف من السنين، مقر قيادة «العمليات النؤاسية.» وهو المصطلح الذي أطلقه سعدون الذي كان بارعاً في إطلاق المصطلحات والألقاب، على جلسات الشرب الأسبوعية التي كانت تعقد كل يوم خميس. كان يسمّي نفسه «القائد المؤسس» لأنه هو الذي جمع أعضاء العصابة وعرّفهم على بعضهم البعض، وهو الذي كان الأكثر إصراراً على استمرارها.

اكتشفتُ من أول جلسة حضرتها أن «جمعية» ليست وصفا دقيقاً، بل واحدة من مبالغات سعدون وتلاعبه باللغة. كنتُ العضو الثالث، أما الثاني فكان شوقي، أحد زملاء أبو سعّودي الذي كان يدرّس علم الأحياء معه في المدرسة نفسها. كان شوقي بديناً، يقتصد في الكلام والشرب، لكنه يأكل المازة بنهم، حتى أن سعدون كان يظل يداهره قائلاً «على كيفك يا معوّد، طيّرت المزّة، هذا مو عشا. راح نتعشّى بعدين.»

في البداية قال لي سعدون إنّني لن أصبح عضواً كاملاً وعاملاً حتى أواظب على الحضور بصورة منتظمة، وأثبت ولائي وجديتي بشرب الحد الأدنى وهو ثلاث زجاجات من البيرة، أو ما يعادلها من العرق لأربعة أسابيع. ولم يشكل هذا تحدياً لي فقد كنت شرّيباً مخضرماً.

كان عدد أعضاء الجمعية يرتفع أحياناً إلى أربعة وحتى خمسة في بعض الأشهر. يغيب البعض ثم يعودون، أو لا يعودون. واظبتُ على الحضور ففندق الخيام كان قريباً من البيت وكان بإمكاني أن أذهب وأعود مشياً إن اقتضى الأمر. وأصبحتُ، مع سعدون، عضواً

ثابتاً وعاملاً في سنوات الجمعية الأخيرة. وما ظل ثابتاً لا يتغير هو مجون سعدون الذي كان يذكي الليالي بنكته وسوالفه والأشعار، وبالذات الخمريات، التي كان يحفظها ويستحضرها بسهولة. كان يحيّي النادل كلما جاء حاملاً صينيته الملأى بقناني البيرة ببيتٍ أو اثنين هاتفاً: «صفراء لا تنزل الأحزان ساحتها/ لو مسّها حجر مسّته سراءُ.» أو «رمضان ولّى هاتها يا ساقي/ مشتاقة تسعى إلى مشتاقِ.» وعندما لا ينجح في لفت انتباهه كان يعاتبه بصوت عالٍ «أيها الساقي إليك المشتكى/ قد دعوناك وإن لم تسمعِ.»

بعد الحملة الإيمانية التي أغلقت فيها الحانات عام ١٩٩٤ انتقلت الجلسات إلى البيوت. وتندر سعدون يومها قائلاً: «خوات الگحبة، رجّعونا لأيام النضال السري. گمنا نشرب بالخِفْيَة.» تطوعتُ لاستضافة الجلسات عندي وأبدعت حِنّة في المازات التي كانت تعدها لنا، وخصوصاً الشوَنْدَر المسلوق الذي أحبّه، واللبلبي الغارق في مزيج الخل والزيت. اختفت الچرزات أيامها لأنها أصبحت غالية جداً. لكن الجلسات تباعدت وأصبحت شهرية أو نصف شهرية. في تلك السنوات الأخيرة من عمر الجمعية لم يبق غيري وسعدون. كان دائماً يردد بأن جمعيتنا لم تعد جمعية قانونية لأن الحد الأدنى هو ثلاثة لكي يتسنى له أن يقول: «سلاماً أيها الندمانُ/ إنّي شاربٌ ثملُ.» وكنت أعترض لأن ذلك لم يكن منطقياً، أو مقنعاً، فكنت أقول له: «ليش ما تگدر تگول: «يا نديمي»؟ يعني لازم أكثر من واحد؟» فكان يردّ:

«طبعاً. ما ترهم. لازم اثنين. أديرا على الكأس إني فقدتها، كما فقد المفطوم المراضع.»

«ليش، شبيها «يا نديمي»؟»

فكان يرد علي بمقطع من مطولة الجواهري بذات العنوان.
والجواهري كان الشاعر الأول في «طبقات سعدون» كما كان يسمّي ذاكرته وهو يشير إلى رأسه. كان يفضله على كل شعراء الدنيا، حتى المتنبي، ويحفظ الكثير من قصائده عن ظهر قلب ويردد دائماً «تاريخ العراق كلّه موجود بدواوين أبو فرات.»

بعد عقود من الشرب تعب جسده وأثبتت الفحوص التي أجراها له الأطباء في بغداد، وبعدها في عمّان، بأنه كان يشكو من تشمّع في الكبد. ونهوه عن الشرب ليتخلص من أوجاع الظهر التي كان يصفها بالـ «سچاچين» التي كانت تقض مضجعه. قاوم في البداية وعاند كثيراً، وكان يحلم بمقايضة أو حيلة ما تسمح له بالاستمرار في الشرب. لكنه استسلم في نهاية الأمر لأنه لم يكن مستعجلاً لدخول جهنم، كما كان يردد وهو يضحك. واكتفى بشرب القهوة التي نصحه الطبيب بأن يزيد من شربها لأنها تساعد الكبد. وكان يعزي نفسه بالقول إنّه يشرب في القهوة معنى الخمرة القديم كما كانت تسميها العرب.

أقنعه أخوه الأصغر بإغلاق محل القرطاسية بعد السنة الثانية من سنوات الحصار التي لم يجن فيها المحل سوى الخسائر. كانت خطة أخيه صالح، التاجر الذكي الذي استفاد وأثرى بحنكته حتى في سنوات الحصار، وربما بسببها، هي بناء عمارة بخمسة طوابق، يكون الطابق الأرضي فيها محال تجارية والبقية شقق تضمن لهم عوائد إيجاراتها دخلاً ثابتاً. وكان له ما أراد لأن سعدون لم يكن ضليعاً بهذه الأمور. ولكنه رأى في المشروع ضمانة له لأن راتب التقاعد كان تافهاً. وسيظلِ المشروع رصيداً له ولأولاده الذين لم يبق له غيرهم بعد أن أخذ السرطان زوجته بعد سنتين من حرب الكويت.

اتصلتُ بسعدون قبل نصف ساعة لكنه لم يكن يجيب على هاتفه المحمول إلا فيما ندر. اتصلتُ بعدها برقم البيت الأرضي فأجابت سندس، ابنته الصغرى، قائلة بأن أباها يستحم، فطلبت منها أن تخبره بأن نديمه، كما كان يحب أن يسمّيني، سيمر عليه. كانت سندس قد انتقلت، هي وزوجها وأولادها الثلاثة، إلى بيت العائلة لتعتني بأبيها الذي ظل وحده بعد سفر أخويها وعائلتيهما في السنوات الأخيرة. حاول ولداه إقناعه بالهجرة، لكنه كان مصرّاً، مثلي، على البقاء. وأصرت سندس على البقاء إلى جانبه.

سمعتُ أزيز المولدة التي كانت في الحديقة الجانبية وأنا أقترب من باب البيت. ضغطت على زر الجرس بإبهامي. نظرتُ إلى شجرة التوت العالية التي تنتصب في الحديقة إلى يمين الباب منذ عقود. كانت عارية تماماً بعد أن تخلّت عنها أوراقها. ترى هل تشعر بالبرد الذي أشعر بشيء منه الآن؟ تذكّرتُ الفسيلة التي أهديتها إليه بعد سنتين من تعارفنا بعد أن وبخته على عدم وجود نخلة في حديقته، وكيف ماتت بعد شتاء بارد رغم أنه لفعها بالبلاستيك وبأكياس الرز ذات النسيج الخشن. لكن الفسيلة التي زرعها في السنة التالية عاشت، وها هي تنتصب شامخة في زاوية الحديقة الأخرى. ترى هل تتحاور النخلة مع شجرة التوت أم أنها تتعالى عليها؟ قطع تأملاتي صوت الباب وهو يفتح. خرج أوس، أصغر أحفاد سعدون الذي كان في التاسعة من عمره، واقترب من الباب الخارجي وهو يرحب بي منادياً: «تفضّل عمو تفضل!»

فسألته:

«ها أوس، شلونك ابني؟ شنو، ماكو مدرسة اليوم؟»

«لا عمّو. أكو، بس آني مريض.»

«سلامتك. شبيك عمّو؟»

«ماكو شي. چِنِت مريض الصبح، بس هسّة صرت زين.»

فتح أوس مزلاج الباب الحديدي فقبلته وداعبت خصلات شعره الأسود وسألته ونحن نمشي إلى الداخل بعد أن أغلق الباب ورائي:

«مريض من صِدُگ، لو كلاوات؟»

فأجاب جده الذي كان قد وقف على عتبة الباب الخشبي المفتوح بالنيابة عنه «كلاوچي وسختَچي بس يريد يظل بالبيت ويّه جدّو. هلا بنديمي، هلا، تفضّل.»

على الرغم من أننا توقفنا عن الشرب منذ سنوات طويلة إلا أن سعدون ظل يناديني «يا نديمي.»

كان المشط الصغير الذي صفف به سعدون ما تبقّى من شعره الأبيض وشاربه الكث بعناية فائقة كعادته لم يزل في يده اليمنى. وضعه في جيب بنطلونه وفتح ذراعيه كي يعانقني. كان يرتدي بلوزة رمادية بياقة مفتوحة برز من تحتها قميص أسود بلون البنطلون والجوارب التي بانت من فتحة الشحاطة. مازحته قائلاً: «هاي شنو هالكشخة؟»

«غير تهَنْدَمِت على مودك.»

تعانقنا وقبلنا بعضنا البعض على الخدّين. وقال لحفيده وهو يدعوني للدخول إلى غرفة الجلوس: «أوس، روح گول لأمك تسويلنا گهوة.»

أحس، ونحن نشرب القهوة التي جاءت بها سندس بعد ربع ساعة، بأن شيئاً ما كان يختبئ خلف الابتسامات والجمل القصيرة التي كنت أجيب بها، ويشغل بالي. كنت صامتاً أتفحص النقش الجميل الذي كان يطرز فنجان القهوة الأبيض، فسألني:

«أشو مو على بعضك اليوم؟ شبيك؟ منو غثّك؟»

«ماكو شي.»

لم يقتنع بجوابي: «لا، أكو شي.»

استدركتُ بعد برهة صمت:

«ماكو شي. بس حنّة ما داتروح من بالي. اليوم ذكرى وفاتها.»

التمع الحزن بعينيه العسليتين وهز رأسه ببطء مرتين، كما كان يفعل كلما كان يطرب لأفراح الدنيا، أو يتأثر بأتراحها وقال:

«أوو، ألِفْ رحمة على روحها الطاهرة.»

«يرحم موتاك ويخليلك الولد.»

«هاي شچَمْ سنة صار؟ ستّة مو؟»

«سبعة.»

«أيّاه. والله عبالك ذاك اليوم.»

خيم صمت لم يتخلله سوى أزيز المولّدة وصوت أوس يتجادل مع أمه في الغرفة الأخرى وهو يكرّر بصوت عال «ليش ماما؟»

سألني سعدون:

«رايح للكنيسة اليوم؟»

«إي طبعاً.»

«والله لو مو عندي موعد الدكتور چان إجيت وياك. بس عندي الفحص الدوري ما أگدر أأجْله.»

كان قد حضر قدّاس وجنازة حنّة ورافق تابوتها إلى المقبرة وساعدني في إنزاله إلى القبر. جلس في الصف الأول في الكنيسة وقرأ الفاتحة مرتيْن على روح حنة ونظر إليه بعض الحضور باستغراب يومها. لم تكن تلك أول مرة يدخل كنيسة فيها في حياته، لأنّه حضر عند وفاة ميخائيل وحبيبة. تهدّج صوتي قليلاً:

«تسْلم عيوني. آني أشعللها شمعة بمكانك.»

«أي، اللّه يخليك. واللّه مثل أختي. اللّه يرحمها.»

بعد فاصل صمت آخر قلت له:

«يابه يگلك آني عايش بالماضي.»

«منو يگول هيچي؟»

«هاي مها، گرايبي اللي گاعْدة عندي بالطابق الفوگ هي وزوجها.»

«إي مو چذب هالحچي. تره إحنَا أنتيكات. هذا اللوتي أوس هذاك اليوم يگوللي: جِدّو إنت شگَدْ قديم. تصَوَّر!»

ضحكتُ وأخبرته عن حلم الليلة الماضية:

«تدري البارحة حلمتْ البيت صايِر متحف، وآني داأشتغل دليل سياحي آخذ الناس عالغُرَفْ وأفرّجْهُم.»

ضحك من قلبه وقال:

«هاي قويّة. إذا هيچي آني أجي أوگف بالباب وأگُصْ بطاقات. زين إلويش گالتلك هالحچي؟»

«چِنَّا دانِحْچي عالطائفية وعلى وضعنا، إحنا المسيحيين، وأشو عِلْگَت. صار جدال حامي فرِد مرّة.»

«إي، شَكو بيها؟ الاختلاف في الرأي لا يفسد للود قضية.»

«إي، بس اختلاف عميق. هيّ متشائمة. تْگُول ماكو أمل ومالنا عيشة بهالبلد. بس تريد تخلص دراستها وتطلع هي وزوجها.»

«حقها. ليش تلومها، حالها مثل حال هالآلاف المؤلفة اللي طلعت. خلّيهم يطلعون يجربون. همّ بيهم حيل والعمر گدامهم. مو هيّ هاي اللي سقْطَت البِچِر؟»

«إي هيّ.»

«إي خطيّة، هاي گلبها محروگ. تره گلب الأم غير شِكِل. بعدين هاي ثكلى بابا.»

شدد سعدون على مخارج الحروف وهو يقول:

««ثكلى» ثكلى يا نديمي. ما سامع الثكلى شتگول لإبنها؟»

ثم فتح راحة يده اليمنى ورفعها قليلاً وأغمض عينيه. كانت هذه الحركة إيذاناً بأن الشعر سيحضر. قال بصوت أعلى قليلاً:

«يا قرحة القلب والأحشاء والكبدِ
يا ليت أمك لم تحبل ولم تلدِ
لما رأيتك قد أُدرِجْت في كفنٍ
مطيّباً للمنايا آخر الأبدِ»

تأخر البيت الثالث، فسأل نفسه: «شلون بعدين؟» سكت لثوان ثم أعاد البيت الثاني مرة أخرى ليساعده في التذكّر. وضع يده على جبينه ثم عثر على ما كان يبحث عنه، فرفعها من جديد:

«إي إي...
أيقنتُ بعدكَ أنّي غير باقيةٍ
وكيف يبقى ذراعٌ زال عن عَضُدِ؟»

كان رد فعلي التلقائي على الجواهر التي كان يلقيها على مسامعي دائماً «همممم» عميقة أتبعها أحياناً بـ«حلو.» أعجبتني الأبيات كثيراً وتعجّبت من ذاكرة سعدون التي لم تصدأ كثيراً بعد كل هذه السنوات. سألته عن القائل كما كنت عادة أفعل، فقال إنّه مجهول.

«فَدْ وحدة اعرابية مَگرودة. أم انْچوى گلبها بزمن الجاهلية.»

«أدري بس هاي أكيد إبنها چان ولْدان وربّته وكُبَرْ گدام عينها.»

«ما يخالف، مع ذلك. مو قليلة يا نديمي. لعد ليش أكو تعبير «فلذّة كبدها.» بعدين مو كل الناس مِتْفاءلة مثلك. ما تْگُلّي منين

تجيب التفاؤل مالك هذا كله؟ شْراح يخلّصنا من هذولة السرسرية المْعَفنين والحرامية وأهل العمايم؟ راح تصير سنة، سنة كاملة، وحكومة ما يگِدْرون يشَكْلون!»

«العمايم تنگلب. بس هيّ، مها، مامصدّگة إنه چان أكو وكت بلا طائفية.»

تنهّد سعدون وقال:

«لمن تِنْگُلُب العمايم إحنا يمكن نكون شابعين موت. هاي إذا انْگُلْبَت. ضاع البلد بين إيران والعربان والأمريكان. واللّه ما أدري يعني چانت كل هالطائفية موجودة وإحنا ما حاسّين بيها؟ معقول؟ وين چانت خاتلة؟ لو هاي صارت كلها مؤخراً ومن ورا التدخلات والحقد علينا وهذوله اللي جوّي من برّا وجابوْ وصخهم وياهم؟ هاي سندس گِدامَك، مو متزوجة شيعي؟ أشو ما چانت مشكلة قبل ١٥ سنة؟»

تذكّرت النكتة التي حكاها لي لؤي قبل أسبوع عن الطائفية فقلت له:

«إسمع هاي راح تعجبك. يگُلَّك أكو تلاثة عراقيين، سنّي وشيعي ومسيحي. وگع بيدهم مصباح علاء الدين السحري. طلع الجنّي، فسأل الشيعي گالّه: شتريد، أطلب وتمنى. فگالّه: إمحيلي السنّة ما تبقّي ولا واحد. الجنّي گاله: صار، تتدلل. إجا عالسّني گالّه: أطلب إنت. فالسّني گالّه: أكتل الشيعة كلهم، لا تبقي ولا واحد منهم يتنفّس. فگالّه صار تتدلل. أجا عالمسيحي، گالّه: إنت شِنو أمْنيتك. المسيحي فكّر شويّة وبعدين گالّه: شوف طلبات الجماعة بالأول وبعدين تعال عليّ»

ضحكنا حتى أدمعت عيوننا وقال: «واللّه هذا المسيحي لوتي.

ليش يضيّع الأمنية مالته. خرا بعَرْضَك على هالنكتة.»

غيّرت بعدها دفة الحديث إلى لاعبنا المفضل، فلاح حسن، الذي كان قد عاد إلى العراق ليتسلم رئاسة الهيئة الإدارية لنادي الزوراء لينقذه من أزماته. فسألته إن كان سمع بخبر نيته الترشح لرئاسة الاتحاد؟

«لا باللّه؟»

«إي. أول البارحة قريت الخبر بالجريدة.»

«واللّه ماكو أحسن من أبو تيسير. يا ريت. بس شنو علاقة فلاح حسن بالطائفية وبموضوع گرايبك؟»

«ماكو علاقة. بس خلص. سدينا الملف. أكيد هي راح تعتذر مني اليوم. هي القصة صارت البارحة بالليل.»

«اللّه كريم.»

تشعب الحديث لساعة أخرى وابتعد عن موضوع مها، لكنه عاد في نهاية الأمر، بطريقة غير مباشرة، عندما تطرقنا إلى أزمة تشكيل الحكومة والاحتقان الطائفي في البلد ونحن نتناول الغداء اللذيذ الذي أعدته ابنته. رز مع مرق البامياء الذي كان مليئاً بفصوص الثوم الكبيرة التي أحبها، مع سلطة وخبز تنّور من المخبز القريب من بيتهم. قال سعدون وهو يصب لي الماء:

«تدري إشگال أبو فرات على موضوع الطائفية؟»

«لا، شگال؟»

«أي طَرْطَرا تطَرْطَري، تَقَدّمي تأَخّري، تَشَيّعي تَسَنّني، تهوّدي تنصّري، تكرّدي تعرّبي.»

«إي، هاي گالها من زمان؟ هل هذا معناه الطائفية صدگ موجودة من زمان؟»

«لا، يابه، دائماً چان أكو سنّة وشيعة ومسيح وأسلام، بس ما چانت كَتِل وسحل وميليشيات ومفخّخات.»

«اللّه كريم.»

ظل إيقاع الأبيات يرن في أذني وأنا أمشي بعد أن ودعته: أي طرطرا تطرطري...

٢

في طريق عودتي من بيت سعدون رأيت نخلة في حديقة أحد البيوت بدا واضحاً أن أصحابه قد أهملوها فلم يكرّبوها أو يشذبوا سعفها. تذكّرت بريسم، صاعود النخل الذي ظل يكرّب ويلقّح النخلتين في بيتي لأكثر من ثلاثين سنة. كان سيصرخ غاضباً لو رآها. بريسم كان يدور في الشوارع، وعندما يرى نخلة أهملها أصحابها كان يظل يرن الجرس حتى يخرج أحد من أهل البيت، ليوبّخهم على قسوتهم وغلاظة قلوبهم. أصبح بريسم شبه أصمّ في سنواته الأخيرة. وكان يصرخ: «ما عندي غير اللّه والنخل... ما عندي غير اللّه والنخل.» أو «هاي برحية هاي» ولعل اللّه كان يحبه حقاً لأنّه أخذه ذات ظهيرة وهو يعانق نخلة في بستان كان قد تسلّقها ليلقّحها، فسكت قلبه وهو في التبليّة. مات وهو يعتني بالنخلة التي كان يخاطبها وكأنها بشر. وكان قد أصبح أسطورة بين صواعيد النخل. هذا ما سمعته من جاسم، الصاعود الذي بدأ يعتني بالنخلتين بعد وفاة بريسم. لكن جاسم لم يكن يحب الكلام. فكلما سألته: «شأخبار النَخَلْ هالأيام؟» كان جوابه دائماً مقتضباً وعاماً: «الحمد للّه أستاذ. كُل شي بخير» المرة الوحيدة التي انفتحت فيها قريحته على

الكلام كانت عندما رن الجرس قبل ثلاث سنوات وقال إنه قرر ألا يكمل عمله ذلك الموسم وبأنه سيعود إلى قريته. استعلمت عن السبب. فقال:

«عمّي آنا رايح لهلي. أكو بيوت أدگ بيبانها يطلعولي ناس ما چانو بيها گَبُل. قسم يَگلون گرايب گاعد يديرون بالهم عالبيت، بس مو دايماً صدگ. أسألهم وين شالَوْ أهل البيت، ما يجاوبون. بس آنا ما أسأل وما أتدخّل. تدري ثْنَعَش واحد من جماعتنا تكتلوا؟ أحسنلي أرجع لهلي أشتغل ببساتين بالجنوب، هناك أمان.»

لم تعد العوائل تسلمه مفاتيح الابواب الخارجية ليدخل ويعمل في الحدائق أثناء نومها، أو في وقت تكون فيه العوائل خارج الدار. ولم يعد يمكنه الدخول عندما تكون النساء أو البنات وحدهن في البيت. يطلبون منه الانصراف إلى أن يتواجد أحد من الرجال.

«قبل الأمريكان چان وضعي أحسن بصراحة. چنت أروح وأجي بكيفي. أيام زمان چنت أنام جوّ الشجرة بأي زاوية، محد يندگ بيّ. هسّة لازم أنام بفندق وإلا أنْچِتِل. وهاي الحيطان الكونكريت خانْگتنا. أستاذ حتى النخل صار بي سنّي وشيعي. لازم أوگّف البايسكل بنقطة التفتيش ما يخلوني أدّخْله، والنوب انْباگ. التَمُر ذبلان ويابس بالعثگ. تدري شگد نخل مگصوص ومشلوع علمود الأمريكان يشوفون لو القناصة يشوفون؟ حرام أستاذ.»

أحزنني ما سمعته منه يومها، لكنّي لم أفاجأ، لأنني كنت أعرف وأردد دائماً بأن أحوال النخل لا تختلف عن أحوال البشر، وعليها ما عليهم، ولها ما لهم. الحروب تقطع رؤوس البشر والنخل. أيكون أصحاب ذلك البيت الذي مررتُ من جانبه قد هجروه أم أن من يشغله الآن لا يحب النخل؟ ولكن هل هناك عراقي لا يحب النخل؟

كيف؟ كنت أؤمن بأن من لا يحب النخل لا يحب الحياة أو الإنسان. كم يشبه الإنسان النخلة، ففيها الذكر وفيها الأنثى، يلقح الثانية طلع الأول ويخصبها فتحبل كامرأة وتتدلى أعذاقها. الفسيلة هي الأخرى كالطفل الصغير لا بد أن تحمى من البرد والمطر كي تشب قوية.

لمحت سعف نخلتي البيت من بعيد وهما تنتصبان في حديقته الخلفية فبدتا كأنهما تحرسانه. أنا أيضاً أحرس البيت وذكرياته. البيت الذي هو أكثر من بيت. فمثلما ليست النخلة محض نخلة، بل حياة بأكملها، متشابكة مع الأرض التي تحتها وكل ما فيها، ومع السماء التي حولها والهواء الذي تتنفسه بكل ما فيه. فالبيت أيضاً ليس محض طابوق واسمنت وصبغ، بل عمراً بأكمله.

بعد أن توفيت حنّة قالت لي أختي أمل من بين دموعها بعد أن عزّتني على الهاتف من كندا: «أحسنلك تبيع البيت وتطلع عيني. شِكْل الأمور راح تنلاص بالأزيد. شعندك بيقي بوحدك؟ تعال عِدْنا. أو روح يم سليمة بالسويد. بس إطلع يا عيوني.» فرفضت كالعادة. «ما راح أطلع. وين أروح واتبهدل بهالعمر؟»

كان أصحاب مكاتب العقارات وغيرهم قد طرقوا باب البيت أكثر من مرة مؤخراً ليسألوا إن كنت أفكّر بالبيع، لكنّي كنت أرفض. أسعار المنطقة كانت في ارتفاع لأنها آمن وأهدأ من غيرها. كما انتشرت فيها بعض المطاعم الأنيقة، وأخذ البعض من الأغنياء الجدد يشترون البيوت القديمة ليهدموها ويبنوا قصوراً ضخمة محلها.

سألني لؤي ذات أمسية ونحن نشاهد التلفزيون:

«عجب ما فكّرت تطلع عمو؟»

«وين أروح بهالعمر وأتبَهْدَل؟ أتبَهْدل هوني ببلدي أحسن. لو شاب يمكن كان طَلَعْتو. إنتم المستقبل قدامكم تروحون وتبدون من

جديد. نحنُ ها هُنا قاعِدون. بعدين هذا البيت أنا بنيتونو وعِشْتو بينو نص قرن وأكثر. شلون أخلّينو وأروح؟»

«أبد ما صار عندك فرصة أو رغبة تطلع قبل؟»

«إجاني مرّة عرض من أبو ظبي بنهاية السبعينات، ومرة لِخ بالـ ٨٩ من دبي بس رفضته.»

«ما متندم؟»

«لا. ما سمعت شيقول الگبانچي؟»

«شيقول؟»

«لا تِفْتِكِرْ راحة السفر/بيه شاهَدِتْ كُلّ القَهَر/بيه شاهَدِتْ كلّ التَعَبْ/والنوم من عيني انْسَلَبْ/ما دريت أنا، ولاحّدْ حِسَبْ.»

٣

تمت ترقيتي وإضافة علاوة كبيرة على راتبي الشهري بعد أن ترجمت الكتاب، وتم نشره من قبل هيئة التمور، وتفانيت في عملي لمدة ثلاث سنوات. كنت قد ادّخرت ما يكفي لشراء قطعة أرض ممتازة بالقرب من الكرادة كنت أحلم ببناء بيت جديد للعائلة عليها. كانت حبيبة قد عادت من السليمانية لتعمل في بغداد وخطبها ابن خالي وتزوجها. وانتقلت لتعيش مع أهله في السنك في البداية، ثم استقلاّ في بيت لوحدهما. اقترحتْ عليّ أن تساهم هي أيضاً في تكاليف البناء من راتبها، وأن يكون البيت هدية لأبينا في سنوات الشيخوخة، كي يعيش مرتاحاً ومحاطاً بأبنائه وبناته وأحفاده الذين كانوا على الطريق. وأردنا أن نسجّله باسمه لكنه رفض رفضاً قاطعاً، فسجّلناه باسم حنّة.

وكما أتذكر اليوم الذي زرعت فيه فسائل النخل في زوايا الحديقة الخلفية، فإنني أذكر يوم كان البيت أسساً تحفر عام ١٩٥٥. كنت أمر على البناء مرة كل أسبوع لأتفقد العمل واستعلم من الأسطة خلف المسؤول عن سيره. استغربت في واحدة من زياراتي التفقديّة بعد أشهر عندما رأيتهم يستخدمون السعف لبناء القوس الذي كان المهندس المعماري قد وضعه في سقف غرفة الضيوف. لكن الأسطة خلف قال لي إنّها طريقة قديمة ومضمونة. وتذكرت أنّي شاهدت في كتاب النخيل كيف كان سكان الأهوار يبنون الأقواس في مضائفهم وبيوتهم.

كان البيت في شارع جميل وهادئ قرب حدائق الأوبرا صار اسمه فيما بعد شارع جعفر علي الطيار على اسم رجل معروف سكن أول بيت في بداية الشارع لسنوات طويلة. أما الشارع الرئيسي الذي يتفرّع منه شارعنا فأخذ يعرف بشارع ٤٢. اكتسبت المنطقة اسمها بطريقة ملتوية؛ فقد سمّى الناس الشارع الموازي للشارع الرئيسي شارع ٥٢، تيمناً برقم الحافلة التي تمر به، وهكذا وزع الشارع الأرقام المختلفة على الشوارع المجاورة. فصار الشارع الذي يتفرع منه البيت يعرف بشارع ٤٢.

استعنتُ بأحد زملائي من كلية بغداد الذي كان قد سافر ليدرس الهندسة المعمارية ثم عاد وافتتح مكتباً استشارياً في بغداد لتصميم البيت الذي أردته كبيراً كي يتسع للعائلة بأكملها. ست غرف نوم، ثلاث منها في كل من طابقي البيت، وغرفة ضيوف كبيرة وغرفة معيشة. واقترح المهندس أن يكون في غرفة الضيوف موقد وتحمّستُ. إضافة إلى حديقة صغيرة أمام البيت كانت هناك حديقة كبيرة جداً خلفه.

لاحت أزهار شجرة الجهنمية التي كانت أغصانها تتسلق واجهة البيت الأمامية والتي وقع اختياري عليها لأنها تظل تزهر طوال السنة وتتحمل الحرارة العالية، بالإضافة إلى روعة لون أزهارها الذي يحاكي ألسنة اللهب. كان بإمكاني أن أرى رؤوس أشجار النارنج الثلاث التي تصطف في الحديقة الأمامية. كم أحب عطر النارنج وأشتاق إليه. كلما حان موسم القطاف كنت أقطفه بنفسي وأعصره في المطبخ، ثم تضعه حنّة في المجمدة لاستخدامه فيما بعد في الطبخ. فعلتُ ذلك سنة بعد أخرى، حتى بعد أن توفيت حنّة. وكنت أعرض على كل من يزورني بين حين وآخر أن أعطيه علب وقوالب الحامض الجامد الذي تراكم في الثلاجة والذي لم أكن أستخدمه. كنت أقول لهم إنه يعطي للأكل طعماً لا يجارى وهذا صحيح.

نظرتُ إلى شبابيك غرفة النوم في الطابق العلوي. كانت الستائر مسدلة مما يعني أن مها خارج البيت. لاحظتُ أن الغبار كان قد تراكم على اللوحة المعدنية التي تحمل اسمي والموضوعة على الدكة اليمنى للبوابة الخارجية حتى كاد حرف الياء في اسمي يختفي. مسحت اللوحة بسبابتي. تحتاج إلى تلميع. فتحتُ البوابة الحديدية البيضاء وانحنيت لأفتح صنبور الماء القريب من الباب. أخرجت كيس المناديل الورقية الذي كان في جيبي وسحبت ثلاثة مناديل بللتها بقطرات الماء، وعدتُ لأنظف اللوحة. أحسستُ بألم أسفل ظهري لكنّي فرحتُ لأنّي نظفت اسمي. لعنتُ الغبار والسخام الذي ازداد في السنوات الأخيرة. تذكّرتُ أنّي لاحظتُ عندما خرجت بأن شجر الآس الذي كان يفصل بين الكاراج والحديقة بحاجة إلى تشذيب. سأطلب من لؤي أن يقوم بذلك عندما تسنح له الفرصة. بعد أن

دخلتُ إلى البيت شعرت بالتعب والنعاس وقررت أن أعوض نومي المتقطع الليلة الماضية، فخلعت ملابسي ونمت.

٤

سمعتُ صوت الماء يدلق كأن أحداً ما يستحم، لكنّي كنتُ وحدي في البيت. مشيتُ إلى الحمّام فسمعت صوت امرأة تدندن أغنية من الأغاني الحديثة التي لا أعرفها. وقفتُ أمام باب الحمام الذي كان موارباً. عرفتُ أنه صوت مها. استغربتُ أن تنزل وتستخدم هذا الحمام بدلاً من الذي في الطابق العلوي. لم أتبيّن شيئاً سوى أرضية الحمام المبللة بالماء. توقفتْ عن الغناء ونادتني باسمي «يوسف، تعال. إفتح الباب. لا تِسْتَحي. ياللّه تعال.» كيف عرفت هي بأنني أقف خارج الباب؟ هل سمعت وقع خطاي؟ هذه أول مرة تسقط فيها الـ «عمّو» فتحتُ الباب فرأيتها تقف تحت الدوش عارية تحتضن طفلاً تهزّه بين ذراعيها. كانت الستارة التي تفصل الحوض عن بقية الحمام قد اختفت وماء الدوش يتساقط على رأس مها وكتفيها ثم يتناثر على أرض الحمّام. كانت تحاول أن تلقم الطفل نهدها الذي يشبه رمانة والذي توّجته حلمة نافرة كي ترضعه، لكنه لم يكن يتحرك وبدا نائماً. استغربتُ أنّ ينام الرضيع تحت كل هذا الماء وهذه الأصوات. نظرت مها إلي وابتسمت دون أن تبدي أي خجل أو تغطي عريها. ثم قالتْ: «تعال يوسف. تعال شوف شقد حلو إبني» «تعال. قا أعَمِّذو» هل أصيبت بالجنون؟ تعمّد هذا الطفل الغريب بنفسها في الحمّام. من أين جاءت به؟ أأقول لها إنّه ليس ابنها؟ ستغضب. بحثتُ عن منشفة كي أغطيها وحالما دخلتُ

إلى الحمّام تزحلقتُ وسقطتُ على الأرض المبللة.

استيقظتُ ومسحتُ قطرات عرق عن جبيني. شعرتُ بالذنب لما رأيته في حلمي. فأنا أعتبرها ابنة لي ولا أريد أن أفكّر بها جنسيّاً. لم أعد أفكّر كثيراً بهذه الأمور أساساً، ورغباتي أصبحت مضببة ولم تعد كما كانت قبل سنوات طويلة، صارخة وحادة أشعر بها في عظامي كل يوم. لكنّ مشاعر الذكورة انقلبت على مشاعر الأبوة مرتين أو ثلاثاً عندما لمحت حلمتيها من تحت قميص شفاف كانت ترتديه في يوم حار. أو عندما شاهدتها من الشباك تجلس على المرجوحة في الحديقة الخلفية واضعة ساقاً على ساق وقد بان فخذاها. وسقطت مشاعر الأبوة كلياً بالتأكيد مرة واحدة عندما رأيتها تزيل الشعر عن ساقيها بالشيرة. ذات يوم أصبحت رائحة الماء من الحنفيات نتنة، فخفت أن تكون هناك حمامة ميتة في الخزاّن الذي على السطح كما يحدث أحياناً. ارتقيتُ الدرج وكان علي أن أمرّ من شقتهم كي أصل إلى السطح. ولم أدرك بأنها كانت قد عادت إلى البيت مبكّراً من الجامعة. عندما فتحتُ الباب رأيتها تجلس على الأرض وقد فتحت ساقيها. كانت ترتدي شورتاً أبيض قصيراً وفانيلة بدون حمّالة صدر وبيدها قطعة قماش وقدر الشيرة على الأرض وبجانبه قطع قماش أخرى. سدتْ ساقيها بسرعة وارتبكت وهمّت بالنهوض، فاعتذرتُ وسددتُ الباب بعد أن قلت لها «إلعفو، ما عبالي أكو أحد. ردتو أروح للسطح. أرجع بعدين.»

نهضتُ من السرير وانتعلت حذائي وذهبت إلى المطبخ لأشرب قليلاً من الماء. ذهبتُ بعدها إلى الحمام لأغسل وجهي. لم تكن مها هناك كما في الحلم. فكّرت وأنا أجفّف وجهي بأنها ستسافر هي وزوجها بعد أشهر قليلة وسأظل وحدي. ذهبتُ لأعد الشاي وأشرب

استكاناً أو اثنين. سأجد من يستأجر الطابق العلوي بالتأكيد لكنّي سأفتقدهما. سأشتاق إليها هي بالذات. فزوجها لطيف، مؤدب وخدوم، لكنه في العمل معظم الوقت وأنا تفاعلتُ معها أكثر بكثير منه. هي التي بذلت جهوداً أكثر لتتقرّب مني. أشعر بأن السبب وراء ذلك لم يكن رد الجميل على استضافتي لهما فقط، بل الحميميّة التي نمت بيننا بالرغم من كل الجدالات. تذكّرتُ كيف اقترحت عليّ، ثم ساعدتني في، فتح حساب بريد إلكتروني. رفضتُ في البداية متعلّلاً بأنّي لا أملك حاسوباً ولن أشتري واحداً. لكنها عرضت عليّ أن أستخدم اللابتوب الذي تملكه هي. علّمتني كيف أدخل إلى حسابي وأبعث رسائل إلى أخواتي. وكتبت لي التعليمات واسم المستخدم وكلمة السر التي كانت: yusif1933 و zahdi على ورقة لأحتفظ بها. ضحكتْ عندما قلت لها كلمة السر التي اخترتها وقالت «كل شي تمر ونخل عندك؟» وفرحتُ بالاكتشاف الجديد وبعثتُ برسالتين إلى أختي، لكنّي كنت بطيئاً جداً، وأخذت أتعاجز. ثم نسيت كل الخطوات وقلتُ لنفسي بأن التحادث على الهاتف أفضل. مها هي التي كانت دائماً تريني صور الأقرباء الجديدة على الفايسبوك. وهي التي أكّدت لي عندما تطرقنا إلى الموسيقى التراثية وقلت لها كم أحب المقام وحدثتها عن مكتبة شرائط الكاسيت التي أفتخر بها، أن هناك صفحة موسوعية على اليوتوب جمع فيها صاحبها كل ما هو مسجل من تراث المقام العراقي وبتسجيلات نادرة وواضحة. ولم أكن أعرف قبلها ما هو اليوتوب لكنها أنزلت اللابتوب من الطابق الثاني وأرتني وتعجّبت. استمعنا معاً إلى آخر أغنية كانت قد أضيفت إلى الموقع بصوت فلفل گرجي.

مها كانت تساعدني في الاتصال بأمل وسليمة بالسكايب الذي

ذكّرني بمسلسل «ستارترك» الذي كان يعرض مساء كل يوم سبت قبل عقود وبأفلام الخيال العلمي. فلم أكن أتوقّع أن أشاهد يوماً الشخص الذي يحادثني على التلفون على شاشة أمامي.

سألتني أختي الصغيرة أمل في آخر اتصال من كندا قبل أسبوع إن كنت قد أوصيت بقدّاس عن راحة نفس حنّة، فأكّدت لها ذلك. وقلت لها إنني سأذهب في الجمعة التي تلي ذكرى وفاة حنّة إلى المقبرة لأصلي على قبرها وأضع إكليلاً من الورد. سألتني «منو راح يكون بالقدّاس؟» «يعني منو أكو غيري أنا ومها وزوجها» سكتت بعد جوابي ثم سمعتها تنتحب. وأخذت تتوسّل بي أن أبيع البيت وأسافر كما كانت تفعل كل مرة.

«شلون تظل بوحدك بهالبيت الكبير؟ زين ومِنو يدير بالو عليك بعد ما تروح مها؟»

«ليش أنا ما كنتو بوحدي قبل ما تجي مها؟ لا تخافين عليّ، كل شي ما يصير بيّ»

«شلون يا أخوي وهالقسّان اللي قيقتلوهم والكنايس اللي قيهجمون عليها؟»

كانت سخريتي سلاحي الأمضى للتقليل من جدية مواقف كهذه:

«ليش منو قالكي أنا صرتو قس؟»

لم تضحك، فأضفتُ:

«إحنا ماكو كل شي يمنا. هاي شكم مرّة صارت هجمات بالمفخخات بس هسة ماكو بعد. هادية الأمور بمنطقتنا.»

زارتني وأنا أشرب الشاي كلمات أغنية لم أكن قد دندنتها أو سمعتها منذ فترة طويلة. فأخذتُ استكان الشاي إلى غرفتي ووضعته

على الطاولة الصغيرة لأزور الأغنية بأكملها. وقفتُ أبحث عنها في مكتبة الشرائط التي جمعتها وكنتُ حريصاً على ترتيبها بعناية. ركزتُ عينيّ على القسم الخاص بيوسف عمر. وجدتُ ضالّتي عندما قرأتُ على جبين أحد الأغلفة: «يوسف عمر: مقامات وپستات، ٣- نوحي.» أخرجت الشريط ووضعته في جهاز التسجيل. يبدو أنني كنت قد توقفت عند نهاية الزهيري آخر مرة استمعت فيها إليه. كان المطرب يتساءل في البستة: «مِنّي اشْ بِدا وتاذيني، يا مُنْيَتي ويا عيوني، تاذيني، هل صادر زَلَلْ مِنّي وصِرِتْ عِذْكُم مَلَلْ؟يِكْفي واتركو هذا الزعَلْ، أرجوكم تراعوني.»

تصاعدت آهات الجمهور بين الفواصل، وعاد صوت السنطور وكأن عازفه يحصي بأصابعه المواجع التي هيّجتها الكلمات والألحان ليسلمها ليوسف عمر من جديد.

«يا گليبي سل وذوب! وِنْ وتِفَطّر/ واجري الدمِعْ يا عينْ من جِفْني الأحمر/ نوحي، نوحي، نوحي على العافوچ يا روحي نوحي/ ياللي طلَعِتْ زعلان، گُلّي اش مَرامَك؟ كُل ما رِدِت، ممنون، يُحُكُم غرامَكْ، خلّي البِلوم يلوم، گَلْبي يحِبّه/ شِلْها غرضْ الناس كُلْ منْ بدربَه/ ولْفي تِرَكني وراح/ مِن هو اليِجيبَه/ وأبْداً ما لِحْ عليه هوًّ وحبيبه/ نوحي نوحي، نوحي على العافوچ، يا روحي نوحي/ بالبَحَر طاح وراح، مفتاح الگُلوب/ صبْر الصِبَرتَه عليك ما صْبَرَه أيوب.»

كنت على وشك أن أسكب دمعة أو دمعتين، لكنّي تمالكت نفسي. ثم تساءلتُ أهو الحزن على حنّة أم زعل مها، أم الاثنان معاً. أو ربما كل شيء كان ولم يكن. كانت الأغاني، والمقامات بالذات، غرف روحي التي أدخل إليها لأجلس فيها وحدي. جدرانها العجيبة

مصنوعة من مادة لامرئية يمتزج فيها الحزن بالحنين وهناك دائماً شبّاك يطل على أغنية أخرى أو على الصمت. أمضيت عدة ساعات أبحث في مكتبتي الصوتية وأستمع إلى أغان لم أسمعها منذ فترة طويلة وكنت قد اشتقت إليها.

شعرتُ بعدها بالتعب والنعاس، فنمتُ مرة أخرى وحمدتُ الشيخوخة عندما استيقظت بدلاً من أن أتحسّر على أيام الشباب. فالشيخوخة تعطي شرعية للكسل والخمول. وتهب صاحبها الحرية في أخذ أكثر من قيلولة وبدون مناسبة. لقد عملتُ وتعبتُ كثيراً في حياتي ومن حقّي الآن أن أكون كسولاً.

٥

بدت الحديقة حزينة من شباك غرفتي. آخر زهرة رازقي قطفتها قبل ثلاثة أسابيع. إنه الخريف، والحديقة في حداد على نفسها. لكن كل شيء سيولد من جديد في الربيع. هذا ما أكّدته لنفسي وأنا أرتدي ملابسي للذهاب إلى الكنيسة. كل شيء سيولد من جديد. سيزهر القرنفل والجوري وحلگ السبع ويلون الحديقة. وسيسمح لي الدفء بأن أجلس على المرجوحة وأشرب الشاي وأغمض عيني وأنا أتلذذ بعبق الورود. كل شيء سيزهر إلا حنّة، فالقبور لا تزهر. القبور لا تعرف إلا فصلاً واحداً؛ الخريف. لا شيء سوى الخريف بانتظار القيامة. ترى متى سآخذ مكاني وأنام أنا أيضاً بجانب حنة والبقية؟ قبل سنتين دفعتُ لجمعية الرحمة رسوم القداس والتابوت والدفن مقدّماً لكي أضمن مكاني في السفرة الأخيرة ولكي لا أتعب أحداً. لست متأكداً البتة من قيامة الجسد. لا يمكنني أن أتصور بأن العظام

ستقوم وتسترجع ما كان عليها من لحم وجلد. سيكون العالم عندها مثل أفلام الرعب. لكني مؤمن بأن الأرواح لا تموت. ومن يعرف أين تذهب الأرواح؟ ربما أصبح عصفوراً يتنقل بين البساتين ويأكل التمر حتى بعد موتي. ربما أعود إلى هذا البيت وأظل بالقرب من هاتين النخلتين. ابتسم قلبي وراقت لي فكرة أن يكون الموت راحة أبدية للجسد وولادة جديدة للروح. وطبقاً لهذا المنطق تكون روح حنّة في القدس أو روما. وربما تعود اليوم إلى غرفتها أو إلى قبة الكنيسة عندما تسمع اسمها وتقول لها الملائكة بأن أخاها الذي لا يصلي كثيراً قد جاء ليصلي من أجل روحها.

٦

ارتديتُ قميصاً سماوي اللون مع بنطلون أسود وانتعلت حذاء المشي وارتديت الجاكيتة ذاتها التي ارتديتها في الصباح. سمعتُ صوت حركة في الطابق العلوي. هل تكون مها قد عادت؟ ربما ستنزل وتعتذر؟ وإلا فسأراها بعد القدّاس في باحة الكنيسة. قررت أن أمشي إلى الكنيسة، فهي على بعد عشرين أو خمس وعشرين دقيقة، والذهاب بالسيارة دوخة راس بسبب نقاط التفتيش في بداية شارع الكنيسة، كما أن السياقة تسبب آلام ظهر. اليوم كله يوم مشي. يمكن أن أعود مع مها وزوجها فهما هناك كل أحد.

مشيتُ إلى نهاية الشارع الفرعي ووصلت إلى العمارة التي كان يحتل طابقها الأرضي محل آرتين الذي كنت أشتري منه القهوة لأكثر من عشرين سنة قبل أن يغلقه ويهاجر هو الآخر. تحوّل فيما بعد إلى محل دجاج مشوي ورغم أنني أحب الدجاج إلا أنني كنت أفتقد عطر

القهوة المحمصة المخلوطة بالهال المطحون. اتّجهت إلى اليمين وبدت بناية المسرح الوطني إلى اليسار عبر الشارع. عندما اشتريتُ قطعة الأرض التي بنيت عليها البيت كان من المفترض أن تشيّد دار أوبرا هناك، لكن الفكرة ظلت فكرة على ورق. صار للأوبرا حدائق جميلة كان الناس يتنزهون فيها عصراً، لكن الأوپرا نفسها لم تأت. ثم بنوا المسرح الوطني الذي كنت أحضر أحياناً بعض المسرحيات فيه وأماسي الموسيقى الكلاسيكية أيام زمان.

اجتزتُ ما كان يعرف بحدائق الأوپرا أمام قيادة القوة الجوية. سأعد أربعة فروع ثم أتجه إلى اليسار وأظل على خط مستقيم يوصلني إلى الكنيسة. بعد حوالى ربع ساعة بدأ الطابق العالي والدائرة التي يتوسطها الصليب التي كانت علامة الكنيسة الفارقة يلوح من بعيد. عندما اقتربتُ أكثر من الكنيسة انتبهتُ إلى أن النخلة التي في باحتها قد طالت حتى كاد سعفها يصافح الصليب. كنت قد بكّرت في الذهاب فلم يكن هناك الكثير من الذين يتجهون نحو الكنيسة. أوقفني أحد الذين كانوا يحرسون المدخل الخارجي، لكنه لم يفتشني، واكتفى بجوابي إنني مسيحي جئت لأحضر القدّاس وقال باحترام: «تفضّل أخي.»

في باحة الكنيسة الخلفيّة اتجهت نحو المغارة المبنية من الحجارة والتي تحتضن تمثال العذراء داخلها. كانت امرأتان تقفان بخشوع. شاهدت صندوقاً خشبياً كتب عليه بالأبيض «جمعية سيدة النجاة الخيرية لمساعدة الفقراء» فأخرجت بعض النقود الورقية من محفظتي ووضعتها فيه ثم أوقدت شمعة من الشموع التي كانت مكدسة إلى جانبه. ثبّتها على الصينية لتنضم إلى ست شموع كان آخرون قد أوقدوها قبلي. أوقدت واحدة أخرى كما وعدت سعدون

ونظرت إلى تمثال العذراء. هبّت نسمة ريح أربكت لهب الشموع وأطفأت واحدة منها فأوقدتها من جديد. سمعتُ حفيف السعف الذي كان فوقي. أعجبني أن النخلة تقف في باحة الكنيسة. ربما كانت تحمي مريم التي في المغارة. وتذكّرتُ حنّة والجدال الذي دار بيننا ذات مرة عن العذراء والنخلة قبل أكثر من عشرين سنة. كنا نجلس أمام التلفزيون نشرب شاي العصرونية وكان عبد الباسط يجوّد سورة مريم التي ظهرت آياتها على الشاشة بخط جميل. وعندما وصل إلى «فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت يا ليتني متّ قبل هذا وكنت نسياً منسيّاً، فناداها من تحتها ألا تحزني قد جعل ربك تحتكِ سريّاً، وهزّي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنيّاً.» أخذتْ حنّة تدمدم كعادتها عندما تسمع ما لا يروق لها:

«هاي قصّة النخلة منين جابها محَمَّد؟ ماكو هكّي شي بالإنجيل.»

«أكو، بس مو بالإنجيل اللي إنتي تقرين بينو.»

كنت قد قرأت قبل فترة عن الأناجيل الضائعة وتلك التي لا تعترف بها الكنيسة وأثارتني المعلومات التاريخية. سألتني باستغراب:

«لعد يا إنجيل هذا؟»

«هاي قصة النخلة ويسوع اللي يحكي بالمهد موجودة باثنين من الأناجيل اللي ما قبلت الكنيسة تعترف بيّه.»

«أشو أنا ماكِن سمعتو بيّه؟»

«أي طبعاً. خومو راحْ يقلّولكي بالكنيسة عالأناجيل اللي ماكِن اعترفو بيّه أصلاً.»

«لو أناجيل صِدِق كان سمعنا بيَه من زمان.»

«ليش مو صدق يعني؟ قصص عن حياة يسوع، حالها حال بقية الأناجيل. حتى أكو إنجيل كتبه يهوذا وإنجيل مريم المجدلية.»

«إنجيل يهوذا؟ هاي شلون حكي هذا؟»

«هذا تاريخ موجود، بس الكنيسة ما تريد يطلع.»

«وإنت شنو گرايتك ويّا الكنيسة؟ ما تقِلّي؟ إنت لا تروح عالكنيسة ولا عليك بالكنيسة. خليّها بحالها.»

«يالله خلَص لاَ تِزْعلين. يعني خلّي مريم العذرا تاكل تمر. شنو المشكلة؟»

غضبت من كلامي الذي كانت تعتبره كفراً بمقدساتها فقامت وتركت الغرفة قائلة:

«أوف يوسف، يعني مرّات كِلّش تطوّخها تره.»

شعرت بالندم لأنني كنت أكثر من استفزازها بلا مناسبة. لم أكن بتدينها وورعها، لكنّي كنت مؤمناً على طريقتي الخاصة. لم أكن أتقيّد بالواجبات والتعاليم. فهي علامات على الطريق إلى اللّه لمن يحتاج إلى علامات وإلى نظام سير. أما أنا فلم أكن بحاجة إلى علامات كهذه. أعرف بأن اللّه موجود. فلا يعقل أن يكون هذا الكون كله موجوداً هكذا لوحده عبثاً وبدون سبب وبدون إله. مع ذلك، كانت لدي أسئلة كثيرة لم أجد لها أجوبة شافية. أسئلة عن الكون والإنسان والطبيعة. وسؤال واحد بالذات يلح علي. سؤال عن كل هذا الشر الذي يسمح به اللّه أو لا يعاقب من يفعلوه. مع أنه في كل مكان. ليس فقط في الكتب والصلوات ودور العبادة. اللّه في الطبيعة وفي الجمال. لم أكن مهتماً كثيراً باختلاف الطرق التي يسلكها البشر إلى اللّه. فالطريق بحد ذاته لم يكن يضمن طهارة

أولئك الذين يمشون عليه. هناك أخيار وأشرار يملأون الطرق كلها وهناك من يظن أن لا طريق إلى الله إلا طريقه هو.

رسمتُ علامة الصليب على وجهي ثم استدرت. رأيت شابة في بدايات العشرينيات، بعينين سوداوين ووجه صافي الجمال، تتكئ على جذع النخلة السامقة. كانت ترتدي فستاناً أزرق وتحمل حقيبة يد سوداء، بلون حذائها الذي كانت قد خلعت إحدى فردتيه للتخلص من الألم، كما يبدو. لعلها مشت طويلاً بحذائها الضيق أو الجديد. نظرتْ إلى رسغ قدمها المحمرّ ثم قالت لامرأة أكبر منها بكثير وأقل اهتماماً بملابسها، قد تكون أمّها، كانت تتجه إلى مدخل الكنيسة «دروحي إدخلي إنتي وهسة ألحقكي.»

اتجهتُ نحو المدخل وارتقيت الدرجات الثلاث ودخلت إلى الكنيسة. في الداخل وضعت سبابتي في قدح الماء المقدّس ورسمت علامة الصليب على وجهي. مشيت في الفسحة التي تفصل بين صفّي المصاطب الخشبية وتنتهي عند المذبح. لم تكن الثريات المتدلية من السقف مضاءة بعد، فنور الشمس الذي كان يدخل من الشبابيك الكبيرة على جانبي الجزء الأعلى من السقف كان يكفي. لمعت كلمات فعل الإيمان المنقوشة بلون ذهبي بالخط الكوفي على شريط من الخشب الصاج يعلو الأعمدة التي تراصفت على الجانبين ويدور أفقياً حول الكنيسة. كنت قد حفظت تلك الكلمات عن ظهر قلب منذ طفولتي وردّدتها وسمعتها تردّد في كل قدّاس حضرته: «نؤمن بإله واحد، الله الآب، ضابط الكل، خالق السموات، ما يرى وما لا يرى. نؤمن برب واحد يسوع المسيح، ابن الله الوحيد، المولود من الآب قبل كل الدهور، نورٌ من نور، إلهٌ حق من إله حق، مولود غير مخلوق، مساوٍ للآب في الجوهر، الذي به كان كل شيء. هذا الذي

من أجلنا نحن البشر، ومن أجل خلاصنا، نزل من السماء وتجسّد في الروح القدس ومن مريم العذراء. تأنّس وصُلِبَ عنّا على عهد بيلاطس البنطي. تألم وقبر وقام من بين الأموات في اليوم الثالث كما جاء في الكتب، وصعد إلى السموات، وجلس عن يمين أبيه، وأيضاً يأتي في مجده ليديم الأحياء والأموات، الذي ليس لملكه انقضاء.»

بدت الأعمدة وكأنها تحمل عبئاً ثقيلاً، فبالإضافة إلى الطابوق والإسمنت والجص والسقف الذي على كاهلها، كان هناك فعل الإيمان، وكان كل واحد منها يحمل أيضاً صورة من سلسلة «درب الصليب» التي تصور لحظات مختلفة من آلام المسيح وهو يحمل صليبه في طريقه إلى الجلجلة وإلى مصير محتوم.

كان حوالى عشرين شخصاً قد سبقوني إلى الكنيسة وجلسوا في أماكن متفرقة. عندما أصبحت على بعد ستة صفوف من المقدمة أخذت مكاني على حافة الجهة اليمنى لواحدة من المصاطب. رسمت علامة الصليب على وجهي مرة أخرى ثم جلست أتأمل. لم يعكر الصمت الخاشع إلا بعض الأصوات التي كان يصدرها أحد الشباب الذي كان يهيئ لاقطات الصوت التي ستستخدمها الجوقة للتراتيل. بين الحين والآخر كنت أسمع وقع خطوات أو صوت سعال أو جلوس أحد ما في مكانه. أخرجت هاتفي. لم تكن هناك رسالة من أحد. هل كنت أتوقع مكالمة أو رسالة من مها؟ أقفلته لأنني أنزعج كثيراً عندما ترن الهواتف في أماكن وأوقات غير مناسبة، وأعدته إلى جيبي.

نظرتُ إلى اللوحات الكبيرة المعلقة على الجدار أمامي فوق المذبح ومباشرة تحت القبة. في اللوحة التي احتلت القلب كانت العذراء ترتدي تاجاً ذهبياً وتنظر، مادة يديها إلى كل من ينظر إليها.

ومن نور يشع من صدرها كان يسوع، الفتى، ينظر بوداعة هو الآخر ويمسك بيده اليسرى قلبه المشع، أما راحته اليمنى فمبسوطة. إلى يمين هذه اللوحة كانت هناك واحدة أخرى تظهر فيها مريم راكعة تصلي، ترتدي ملابس بلون السماء وقد غطى رأسها حجاب أبيض وفوقه سرب من الملائكة يحلّقون في السماء. إلى يسارها ركع ملاك أكبر حجماً من البقية، لكنه لم يكن ملاكاً عادياً، بل يبدو أقرب إلى رجل بجناحين يرتدي ملابس بيضاء. إنه الروح القدس يبشّر مريم بميلاد يسوع. نقلت عينيّ إلى الصورة الثالثة التي كان المسيح فيها رجلاً يقف في قلب السماء يرتدي ثوباً أبيض وعباءة زرقاء. يشع النور من وجهه وتحلق حوله عشرات الملائكة. فوق الصور، امتزجت غيوم السماء بأمواج البحر على الجدار الداخلي لقبة الكنيسة. وظهر ملاكان صغيران يحملان تاجاً كانا على وشك أن يضعاه على رأس العذراء الجالسة على الشمس. لكنها بدت غير آبهة بالتتويج لأنها تنظر إلى يسوع الطفل الذي كان مقمّطاً في حضنها.

بالرغم من أنني لم أكن مواظباً على الحضور إلى الكنيسة، إلا أنني كنت أحب جمالياتها وأطرب لطقوسها وتقاليدها العريقة، خصوصاً إذا كان صوت الشمّاس أو الكاهن رخيماً. فقد كان للتراتيل والبخور والأجراس وملابس الكهنة المزركشة والابتهالات وقع في روحي. ربما لأسباب مختلفة عن معظم المصلّين. كان يخيل إلي أن صوت الكاهن، خصوصاً عندما يرتل بالآرامية أو السريانية، قادمٌ من الماضي السحيق ومن البدايات الغامضة. وكنت أرى القداس احتفالاً بالحياة، بالولادة والموت والبعث، ليس للمسيح وحده، بل للجميع. أتخيل المسيح شجرة مقدّسة لا تموت مهما اقتلعتها العواصف وجرفتها الطوفانات. شجرة تعود إلى الحياة كل ربيع.

وبّخت نفسي لأن تفسيراتي هذه هي التي كانت تغضب حنّة التي كانت تعتبرها خروجاً عن الطريق الصحيح وفلسفة عابثة. وهاأنذا أستعيدها في ذكرى وفاتها. تذكّرتُ كيف استشاطت غضباً ذات مرة عندما قلت لها إن العذراء تألمت أكثر من المسيح. لأنها رأت ابنها يعذّب ويُصْلب ولا أعظم من عذاب الأم. أخذت أفكّر بمها وبعذابها. لعلّني قسوتُ عليها كثيراً بكلامي وموضوعيتي. يجب أن أتفادى مثل هذه النقاشات معها في ما تبقّى من شهور قليلة ترحل بعدها. كانت الكنيسة قد امتلأت بالحضور. كنت أتلفت بين الحين والآخر بحثاً عنها وعن لؤي لكنّي لم أرهما.

الأمّ الحزينة

«هزّي جِذْعَ هذه اللحظةِ
تُساقِطُ عليكِ
موتاً سخيّا»

«مريم عراقيّة»

١

دخلتُ غرفة نومنا المظلمة، التي لم تكن غرفتنا، بل محطة انتظار، مثل البيت كله، ومثل حياتنا هذه الأيام. خلعتُ نعلي وارتميتُ على السرير ودفنتُ وجهي في الوسادة الباردة. استيقظ حزني بسرعة، كعادته في السنة الأخيرة، يئن أنيناً تصاعد إيقاعه وأعقبه نحيب مبلل بالدموع. نسيتُ أن أغلق الباب ورائي وسيسمعان بكائي. بعد قليل سمعتُ وقع خطوات لؤي تقترب على الدرج. ثم صوت زر الكهرباء يُفْتح وصوت لؤي يردّد اسمي بصوت خافت ويسألني «هاي شبيكي؟» امتلأت الغرفة فجأة بقسوة الضوء، فترجّيته «لا، لا. طفّي الضوة اللّه يخليك!»

تشبّثتُ بالوسادة وثنيتُ حافتها كي أدرأ الضوء عني. كررتُ من بين دموعي «أرجوك طفّينو» فأعاد للغرفة ظلامها وأغلق بابها وهو يقول «زين، خلص... براحِتْكي.» اقترب من السرير وجلس على حافته. شعرت بيده تحط على كتفي الأيمن. لم أتحرك وظل ظهري إليه. بقيت منكمشة كجنين ينام في رحم لامرئي. مد يده إلى وجهي كي يمسح دموعي لكنني ازددت انكماشاً على نفسي. شعرتُ بالذنب، لكنها كانت حركة تلقائية لا سيطرة لي عليها. انسحبت يده وشعرت به يستلقي خلفي. عاد ووضع ذراعه حولي، يطوقني بحذر

دون أن يقول شيئاً. فكّرت بصمت من تحت دموعي: أتراه تعب مني؟ لم يعد يقول الكثير. لم يعد يقول أي شيء، حين يفيض الحزن أو تنفجر أعصابي. يعانقني بصمت وهذا ما أفضّله، فالصمت أرحم. سمعتُ دموعي وحدها تتكلم بصوت عال في ظلام الغرفة. كيف لا يتعب، وقد تعبت أنا نفسي من حمل كل هذا الحزن على ظهر قلبي؟ لكنه لن يقول شيئاً مهما تعب، لأنه لا يريد أن يجرحني.

«بَسْ نِطْلَع كِل شيْ يصير تمام» كان هذا شعاره في الشهور التي أعقبت الحادث. وكنتُ أردده أنا أيضاً معه «أيْ، بَسْ نطلع، كِل شيْ يصير تمام.» لكن درجة إيماننا بهذا الشعار الذي كنا نردّده كصلاة ونتشبّث به تختلف وتتفاوت. هناك أيام كثيرة تساورني فيها الشكوك، ويزاحم الشعار سؤال يكرّر نفسه بعناد. هل سيكون كل شيء «تمام» فعلاً حتى بعد أن أنهي دراستي وأخرج من هذا الجحيم؟ أم أن هذه البئر المظلمة، واليابسة إلا من دموعي، والتي أظل أسقط فيها، ستلاحقني في كل مكان؟

لم يكن لؤي يسقط في البئر. لا أحد غيري أنا يسقط في البئر. لكن لؤي كان يراني أسقط فيها. يراني أتقرفص في قعرها ويرى بأم عينيه آثار السقوط عليّ. أراه يمد يده من فوق ويحاول انتشالي، لكنه يخفق في معظم الأحيان. فالبئر عميقة ليس بمقدور أحد أن ينزل فيها. وضيقة لا تتسع إلا لأحزاني أنا. ليست بئراً خيالية، بل حقيقة أعيشها في كابوس يتكرر كثيراً.

أراني نائمة على سرير في غرفة في مستشفى نظيف. السقوف عالية وبيضاء بلون الجدران. صدرية الطبيبة وحجابها وملابس الممرضات اللواتي يقفن حول السرير، وكلهن محجبات، بيضاء. لست طبيبة في الكابوس، بل مريضة. أشعر كأن حجراً ينام في

رأسي. عيونهن تتجه إلى يمين السرير. ألتفت يميناً بصعوبة فأرى رضيعي ملفوفاً بالقماط مغمض العينين في مهد بجانب السرير. يحرك ذراعيه وقدميه كأنه عصفور صغير يريد أن يطير. يرفرف قلبي ويطير إليه. أريد أن أحتضنه وأقبّله. أمد يدي نحوه لكنها لا تصل. أقول لهم إنّي أريد أن آخذه في حضني. لا أسمع صوتي ولا هم يجيبون. تبتسم الطبيبة وتشير لي بيدها بأن أقترب منه. أحاول النهوض لكني أحس بكل شيء يدور حولي وبألم شديد في رأسي. الممرضات يبتسمن دون أن تتحرك واحدة منهن لمساعدتي. أجلس على حافة السرير لكني لا أحس بالأرض تحتي. تختفي الطبيبة والممرضات. وعندما أنظر إلى الأسفل لا أرى شيئاً سوى الظلام. أسقط كدمعة إلى قعر بئر مظلمة. وأسمع صوت صراخي وبكائي وأنا أسقط. حين أرتطم بقعر البئر أسمع صوت انفجار. أتقرفص في القاع وأسمع صوت طفل يبكي. طفلي. لكني لا أراه. أمد يدي وأصرخ. ثم أستيقظ مبللة بالعرق والدموع ومنكمشة كطفل يبكي أمّه، لا كأمّ تبكي طفلها.

٢

لا بد أن لؤي هو الآخر يفكر وهو يطوّقني بذراعه: ترى متى ستعود الأمور إلى ما كانت عليه؟ إلى ما يشبه وضعاً طبيعياً؟ كان يأمل أن أحبل ثانية ويكون الطفل الجديد ثمرة تعوض ما سقط وتمحو أحزان الماضي. هذا ما قاله الجميع تقريباً وهم يواسوننا «يلله شدّو حيلكم واللّه يعوّضكم بويحد لاخ.» لم أمانع في البداية، بالرغم من الصعوبات التي كانت ستضاف بإكمال الدراسة أثناء

الحمل. لكنني في المرة الأولى عرفتُ كيف أوفّق بين الحمل والدراسة. أمي دائماً تحوم حول الموضوع وحماتي أيضاً. من حقهما أن تطالبا بحفيد أو حفيدة. كنت أقول لهما «اللّه كريم» لكن يبدو الآن أن الأمر قد يتطلب أعجوبة. لم ننم معاً بعد الحادث إلا ثلاث أو أربع مرات، وفشلنا كل مرة في أن نكمل. كنتُ أرغب في أن أرغب، واستجبتُ لقبلاته ولمساته في المرة الأولى. لكن مزيجاً من أحاسيس غريبة لم أعهدها من قبل بدأ يتولد في أعماقي. وحالما وضع فمه على حلمتي يقبلها ويمصها انفجرتُ ببكاء لم يتوقف إلا بعد ساعة. احتضنني بقوة واعتذر بأنه ربما تسرع. اعتذرتُ منه بدوري وكان لطيفاً وتفهم الموقف. وفي المرة الثانية، بعد عدة أيام، كنتُ متجاوبة معه ذهنياً، لكن جسدي لم يتجاوب على الإطلاق. أصبح السائل الوحيد الذي كان جسدي مستعداً لإفرازه هو الدموع. كأن الجسد نفسه كان في حالة حداد على ما اقتطع منه عنوة. ترى هل يفكر الجسد بمعزل عن العقل ويرفض ما يمليه عليه؟ هذا ما بدأت أصدّقه.

حاول بعدها عدة مرات أن يداعبني لكنّي كنت دائماً أجد سبباً للتأجيل والتهرّب، فأتحجج بالتعب وبالمزاج. حتى عندما ينتصب وهو ينام بجانبي كان يحاول أن يأخذ يدي ويضعها عليه، لكنّي لم أكن أستجيب. وتعب هو من الصد والرفض مرات ومرات، فتوقف عن محاولاته. لا أعرف، لكنّي أشك، بأنه أخذ يعتمد على نفسه في الحمام كل يوم. وربما في السرير أيضاً. أستيقظتُ مرة عندما شعرت بالسرير يهتز في الليل، لكنه توقف بالتأكيد عندما تنحنحت.

أعرف بأنه يشاهد الصور والأفلام الخلاعية على الحاسوب ولا يهمني الأمر. هل يجب أن أحزن أو أغضب؟ لا رغبة لدي ولا

أستطيع حتى اصطناعها. كان يحرص على محو آثار وتاريخ زياراته إلى المواقع الإباحية التي يدخل إليها على حاسوبه الصغير في البيت والتي لا بد أنّه يزورها كثيراً على حاسوب مكتبه في العمل.

٣

شعرتُ بالذنب لأنّي انفجرت كبركان بوجه يوسف. أقدّر كرمه وطيبته في استضافته لنا كل هذه المدة وسأظل مدينة له مهما حييت. لكنّي لم أعد أطيق تفلسفه وتبسيطه للأمور وطيبة قلبه التي تضيع الحدود بينها وبين السذاجة. أريد أن أشاهد الأخبار وأعلّق عليها وأبدي رأيي بحرية دون الدخول في جدالات عقيمة لا أشعر فيها بالراحة لأني يجب أن أحترم مضيفي وآراءه. أريد أن أشتم من أريد شتمهم، وأنتقد من أريد انتقادهم. حتى لو كان ذلك «غير موضوعي» كما يظل يكرر هو. لكنّي لست في بيتي ولا أستطيع أن أعود إليه. بيتي لم يعد بيتي، ولا بيت لي. يمكنني طبعاً أن أظل في طابقنا وأشاهد الأخبار براحتي. أنا لا أشاهدها كثيراً أصلاً. لكن من العيب أن أتعامل مع البيت وكأنه فندق وألا أسلّي يوسف كلما سنحت الفرصة. وهو الذي رحب بنا والذي يرفض حتى أن يأخذ إيجاراً منّا.

بعد أن سكتت دموعي وغفا حزني، أردت أن أسأل لؤي عمّا قاله يوسف بعد خروجي ومدى زعله. لكني عرفت من إيقاع أنفاسه العميقة بأنه نام. كان يومه كالعادة طويلاً ومنهكاً. ازدادت وطأة شعوري بالذنب. سأعتذر من يوسف غداً قبل أن أذهب إلى الجامعة وسأطبخ له في أقرب فرصة أكلته المفضلة «تبسي الباذنجان.» وسيغفر لي بالتأكيد، فهو يعرف كم أحبّه وأحترمه، حتى وإن اختلفنا

على موضوع مصيرنا في العراق والطائفية المستشرية. قلبه يسع الدنيا وسيتسع لي.

نعم، سأعتذر منه، مع أنّي لا أزال مصرّة ومقتنعة بأنّه يعيش في الماضي. وحتى عندما يخرج من الماضي إلى الحاضر فهو يظل في حدود عالمه الخاص المعزول. فبالرغم من اطلاعه الواسع ومتابعته للأخبار إلا أنّه لا يعيش ما أعيشه أنا كل يوم. صحيح أنه يخرج لشراء الجرائد والتسوّق وليلتقي، بين الحين والآخر، بصديقه. لكن صديقه أيضاً يعيش في ماضيه بكل تأكيد. ومن المؤكد أنهما يتحسران على الأيام الخوالي ويهربان من الحاضر. يقضي معظم وقته في البيت يستمع إلى الأغاني القديمة ويقرأ الكتب أو يجلس في حديقته ويعتني بها. لكن حديقته الجميلة جزيرة لا علاقة لها بالعالم الخارجي البشع الذي أعيش فيه. لا يمكن لمن يجلس فيها حتى أن يرى الشارع. هو لا يتعامل مثلي بشكل يومي مع كل الذين أتعامل معهم أنا. لا يسمع ما أسمعه ولا يرى ما أراه كل يوم. لا يمكن له أن يتخيل مشاعر امرأة وهي تتعرض لكل تلك النظرات. النظرات التي أشعر وكأن أصحابها يلتقطون صور أشعة اجتماعية ليحددوا طبيعة مرضي ونجاستي لأني لست مثلهم أو من ملّتهم. ولا تجيء النظرات من أعين الرجال فقط، بل حتى من النساء اللواتي ينظرن إلي ويشعرنني كأنني عاهرة لأنني لا أرتدي الحجاب. حتى بعض زميلاتي في الجامعة كن يتهامسن وينظرن إلي بطريقة مزعجة أحياناً. وأعرف بأنهن يتكلمن عن هذا الموضوع. قاومتُ لسنتين ثم اضطررت في نهاية الأمر إلى المساومة وأخذت أرتدي الإيشارب، الذي كنت أضعه على رأسي داخل الكنيسة فقط، في كل مكان، لأدرأ عني الكثير من هذه النظرات أو أقلل من حدّتها.

كل ما أريده هو أن أعيش في مكان أكون فيه مثل الآخرين. أمشي وأخرج وأدخل ولا يشار إليّ أو يتم تذكيري بأنّي مختلفة. قال لي أحد الموظّفين ذات يوم، وهو يقرأ استمارة ملأتها بالمعلومات الشخصية لأكمل معاملة، معلقاً على اسم والدي: «اسم جورج أجنبي مو؟» فأجبته بحزم:

«لا مو أجنبي، عراقي.»

«شلون مو أجنبي؟ مثل جورج بوش.»

«لا، مثل جورج وسّوف... وجورج قرداحي.»

دمغ الاستمارة وأعادها إلي وأحسست بالتعالي والكره يسيل من نظراته عندما تبرّم قائلاً: «يعني قحط أسامي؟ شوفولكم أسامي عربية.» لم أقل شيئاً، فما فائدة الجدال مع جاهل حقير. ولم تكن تلك أول ولا آخر مرة. عندما حكيت القصة لأبي حدّثني عن عبد السلام عارف الذي حكم البلاد قبل أن أولد أنا بسنين طويلة وكيف قال ذات يوم وهو يلقي كلمة أمام حشد كبير: «لا جوني ولا جورج بعد اليوم. بويَه حمد وخويَه حمود.» لكنه أضاف بأن عبد السلام عارف كان معتوهاً، لأنه أيضاً قال ذات مرة بعد أن ملّ من الهتافات وهو يحاول أن يكمل خطابه: «كافي! خلّونا ناكل خَرا عاد!»

ذات مرة كنت قد أخذت معي كعك الكليچة في كيس صغير إلى الجامعة وعندما أخرجت واحدة لآكلها قبل المحاضرة سألني أحد زملائي والذي كان يعرف بأنّي مسيحية متعجباً: «هاي إنتو هم تاكلون كليچة؟» ورددت عليه دون أن أستطيع إخفاء انزعاجي «إي، ناكل كليچة ونشرب چاي وماي مثلكم. قابل إحنا جايين من الفضاء الخارجي؟» ولكنه لم يكتف فسألني عن رأس السنّة: «آني سمعت

إنتو براس السنة من تصير ثنعش بالليل القس يطفي الضوة ويگول لكل واحد يبوس البنيّة اللي واگفة يمّه. صدگ؟» حملتُ كيس الكليچة وكتبي وحقيبتي وغضبي ومشيت بعيداً. لم أحادثه بعدها أبداً، ولم يعتذر عن جهله إلى اليوم.

أستشيطُ غضباً عندما أقرأ بين الحين والآخر تعليقات على الفيسبوك يتهم فيها البعض المسيحيين بأنهم يساعدون الاحتلال ويتعاونون معه لأن البعض منهم عمل مع الجيش الأمريكي. أكتب ردوداً أذكر فيها بأن المسلمين عملوا مع الاحتلال أيضاً وبأن السياسيين العراقيين الذين طبّلوا للغزو ودعوا الأمريكان للقدوم إلى العراق وعملوا مع الاحتلال لسنوات طويلة كانوا مسلمين. وكنت أُكثر من علامات الاستفهام والتعجب في ردودي وأضعها بصيغة أسئلة: ألم تأتِ معظم النخبة السياسية مع الاحتلال؟ وكل هذه الأحزاب الدينية والطائفية ألم تعمل مع الاحتلال؟ هناك من تدعمه إيران أو السعودية أو تركيا، لكن من يدعمنا نحنُ؟ محوت أكثر من «صديق» و «صديقة» من قائمة الأصدقاء سمحوا للآخرين بأن يكتبوا تعليقات طائفية ضد المسيحيين على جدرانهم.

تعبتُ لأن كل شيء وكل شخص يذكّرني، بمناسبة وبدونها، بأنّي أقليّة. حتى الصليب الذهبي الذي أهدته لي جدتي بمناسبة طقوس المناولة الأولى لم أعد أضعه حول عنقي. في البداية أخذتُ أحرص على إخفائه تحت ملابسي لكي أتفادى النظرات المتطفلة. وعندما انقطعت السلسلة التي تحمله لم آخذه إلى أحد الصاغة ليصلحه. اكتفيتُ بوضعه مع السلسلة المقطوعة في علبته الأصلية الصغيرة وأخذت أحمله معي في حقيبتي ليحميني كل يوم. أخرجه أحياناً في البيت وأقبله وأتذكر جدتي وأبكي.

أريد أن أعيش بحرية وأضع ما يحلو لي حول عنقي، وما طال أو قصر من ملابس. حذرني يوسف أكثر من مرّة بأن الهجرة والسكن في بلاد أغلبيتها من المسيحيين لن يكون بلا مشاكل وصعوبات، ولا يعني بأنني لن أشعر بأنني أقلية هناك أيضاً. قال إنني سأتعرض للعنصرية هناك لأنني عربية. يتحدّث وكأنه عاش هناك لسنين، مع أنّه لم يسافر منذ مدة طويلة وكان يزور تلك البلدان مع وفود في زيارات قصيرة. كنت أقول له إنني مستعدة أن أتحمل وأقبل بأي شيء مقابل الخلاص والعيش بعيداً عن المفخخات والإرهاب والطائفية.

فكان يتمتم: «إنتي حرّة.»

٤

يظل يوسف يتحدث عن الاستقرار الذي كان. لكن ليس لمعناه صورة واضحة في ذهني أو ذاكرتي. ليس الاستقرار السارد الرئيسي في ماضيّ أنا بل نقيضه، حتى قبل السقوط ودخول الأمريكان. لا أرى مشاهد مثل تلك التي تظهر في الأفلام، الأفلام التقليدية السعيدة على الأقل، عندما أتذكّر طفولتي. شموع على كعكة عيد ميلاد أنفخ عليها وأنا محاطة بأحبتي الذين يغنون لي، فتنطفئ ثم أبدأ بفتح الهدايا. نعم، كانت هناك هدايا واحتفالات ولحظات سعيدة مبعثرة. لكنها تبدو الآن كجزر صغيرة تطفو على بحر عميق من الحزن، ابتلع أحبتي أو أخذهم بعيداً عني.

فكيف لي أن أنسى غياب خالي، مخلص، الذي كان يدللني كما لم يدللني أحد. خالو مخلص الفارع الطول الذي كان يسألني كلما زارنا: «ها مهّاوي. تريدين تطيرين؟ تريدين تصيرين عصفورة؟»

كنتُ أوافق بفرح على عرضه الخرافي وأنا أنظر إلى عينيه الضاحكتين وغمازتيه. لكن عرضه كان مرتبطاً بشروط لا يتنازل عنها أبداً. أن أقبله أربع مرات ثم أعانقه بقوة «حيل حيل» كما كان يقول. كنت أحب أن أعانقه ولم أكن أشبع من تقبيله لأن عطره كان دائماً يذكرني برائحة الفاكهة والعلكة المطعّمة التي أحبها. بعد القبل والعناق كان يرفعني بساعديه القويّين عالياً ويدور بي في حديقة بيتنا وهو يقول لي بأن أجنحتي ستنمو عندما أكبر وسيمكنني أن أطير بين الأشجار وأقف على أغصانها. كان يقف ويرميني عالياً في الهواء ثم يتلقفني عندما أنزل. وكنت أصرخ بمزيج من الخوف والفرح وأطالب بالمزيد. كان يستجيب ويعيد الكرة إلى أن تجيء أمي وتقول له: «ياالله مخلص، كافي، تعالو جوّة.»

مخلص، خالي الوحيد، اختفى فجأة ولم يعد يزورنا في البيت ولم أعد أتدرب على التحليق معه. كنت أسأل «وين خالو مخلص؟» «شوقت يجي؟» فكانوا يقولون لي إنه مسافر وسيعود قريباً. لاحظت الحزن الذي اعترى أمي ونوبات البكاء التي اعقبت غيابه. في تلك الأيام تعلّمت كلمة جديدة سمعتها تتردد في أحاديث الكبار فيما بينهم. وعندما كانت أمي تستقبل الجيران أو الأقارب وتسرد الحكاية على إيقاع الدموع وهي «اختطاف.» كانت ترافقها مفردة أخرى معظم الأحيان «فِدْية.» وكلما سألت أمّي «ماما شنو يعني اختطاف؟» كانت تقول لي «مو شغلكي بنتي، روحي العبي برّة!» أدركت فيما بعد بأن الاختطاف يعني أن لا يعود الشخص الذي نحبه لأن الأشرار، وكنت أتخيّلهم مثل أولئك الذين كنت أشاهدهم في الأفلام، أخذوه بعيداً ويطالبون بمبالغ هائلة كي يطلقوا سراحه. لاحظت الجدالات المحمومة والمكالمات التلفونية وساعات الترقب. كنت أقف وراء

باب غرفة المعيشة وأتلصص على جدالات الكبار وأتنصت على مشاوراتهم. عرفت أن والدي تمكن من جمع مبلغ الفدية وبأن اللقاء مع العصابة سيكون في شارع القناة، خلف مدينة الألعاب. وفرحت لأن خالي سيعود وكنت متأكدة أنه سيجلب معه الكثير من الحلوى كما كان يفعل كلما جاء. وعندما سألت أمّي: «راح ييجي خالو؟» لم تنهرني بل قالت لي: «إنشالله بنتي، اللّه كريم.» لكن كل ما أعقب المواجهة المرتقبة وتسليم المبلغ هو المزيد من الحزن. عندما عاد أبي بعد ذلك المساء بيومين احتضن أمي وقال لها جملة واحدة بدأت تلطم وتصرخ بعدها: «راح مخلص» وظلت تبكي لأسابيع.

ارتدت النسوة السواد وامتلأ البيت بالزوار لمدة ثلاثة أيام. البعض كانوا من الأقارب الذين أعرف أشكالهم وأسماءهم، لكن جاء الكثير من الغرباء أيضاً. كان الرجال يجلسون في غرفة الضيوف والنسوة في غرفة المعيشة. سألت الجميع عن «خالو مخلص» وكانت الأجوبة تنويعاً على جواب واحد، وهو أنه سافر بعيداً. كنت أعرف بأن الذي يسافر يعود، لكنّهم كانوا يقولون إنه لن يعود من سفرته هذه. عاد وجهه فقط، بالأبيض والأسود، يبتسم في صورة ظلت أمي تضعها بالقرب من صدرها وهي تبكي. ثم علقتها على جدار غرفة المعيشة. كانت تلك أياماً حزينة والشيء الوحيد الذي أفرحني فيها هو الرجل الذي استقدمه والدي ليصنع القهوة لثلاثة أيام ليشربها المعزّون والذي كان لطيفاً للغاية معي. كان يأتي في الصباح الباكر ويضع عدته في الطارمة الصغيرة بالقرب من المدخل الذي يؤدي إلى غرفة الضيوف. كنت أراقبه وهو يضع الدلال على الفحم ليغلي القهوة. ولاحظت كيف يدخل يده في كيس ورق ويخرج منه حبّات بلون أخضر فاتح يضعها في القهوة ثم يضع واحدة في فمه كأنه

يعلكها. سألته «عمو، شنو هذا؟ عِلِك؟» فضحك وقال «لا حبيبتي، هذا هيل، تريدين؟» هززت رأسي موافقة فأعطاني حبة. أمسكتها بأصابعي الصغيرة وتفحصتها وسألته «لعد ليش تحطّه بحلقك؟» فقال لي «يطلّع ريحة طيبة.» وضعت الحبة في فمي وعضّضتها فتكسرت قشرتها الرقيقة. أخذت أعلس البذور لكنها تركت طعماً مراً في لساني. فأخرجتها مع لعابي وبصقتها في راحة يدي وكأنني أعيدها إلى الگهوچي الذي أخذ منديلاً ورقياً ومسح يدي وفمي وقال لي «روحي اشربي ماي عمو.» ظلت المرارة في فمي حتى بعد أن شربت ماء. في تلك الأيام ولدت بذرة مرارة أخرى، مرارة فقدان خالي الذي سافر ولم يعد. مرارة لا ينفع معها شرب الماء لأنها ستكبر وتغصّن.

كانت جدتي تردد في العزاء وهي تبكي بأنهم اختطفوه وقتلوه لأنه مسيحي. لكن يوسف، كعادته، فسر الحادثة تفسيراً «موضوعياً» عندما تطرقنا إلى حادثة اختطاف خالي قبل شهر. قال إنهم اختطفوه لأنه كان صاحب محل أزياء وخمّنوا بأنّ عائلته ستتمكن من تدبير المبلغ. وقال إن الخطف كان قد أصبح آفة تطال الجميع بغض النظر عن الدين والطائفة وهم يفضّلون من لا ينتمي لعشيرة تأخذ بثأره. غريب أنني لا أذكر أنّني رأيت يوسف في العزاء لكنه يتذكر تفاصيله جيداً.

٥

في منتصف التسعينيات، عندما كنت في الابتدائية، اكتأب أبي وظل جليس البيت لشهور طويلة. كنت أعود من مدرستي القريبة من

بيتنا لأجده يجلس على كرسي لوحده في حديقتنا الصغيرة. يدخن سيجارة بعد أخرى ويحملق في الفراغ الذي كان قد أخذ يملأ أيامه. كنتُ أحييه بحماسة وفرح فيرد علي بابتسامة باهتة «هلو بنتي» وكلمات مقتضبة بعد أن أقبله على خده الذي أصبح شوكي الخشونة، لأنه لم يعد يحلق ذقنه كل يوم. لم يعد يسألني كثيراً عن تفاصيل يومي وعن الجديد الذي تعلمته في المدرسة كل يوم كما كان يفعل في الماضي. فالحملة الإيمانية التي أمر بها صدام أجبرته على إغلاق المشرب الذي كان يملكه هو وشريكه. انقطع مصدر رزقنا وتراكمت الخسائر، وفوقها الهموم لأن راتب أمي، التي كانت تعمل سكرتيرة في عيادة طبيب، لم يكن يكفي لتغطية المصاريف.

عدت ذات يوم لأجده يقف خارج البيت أمام تلة صغير من كسر الطابوق، يعطي تعليماته لعاملين يحملان المعاول كانا قد هدما جزء من جدار البيت، وأخذا يحفران الأرض في زاوية من الحديقة. سألته «هاي شنو بابا، شقيسَوّون؟» فقال لي إنهم يبنون دكاناً ليعمل فيه ويبيع ما تيسر كي يتمكن من تمشية الأمور «نريد نداري خبزتنا بنتي.» كنت قد سمعت أمي تقول له في الأيام التي سبقت ذلك «شكو بينو الدكان. أحسن من ما تقعد بالبيت عطّال بطّال.»

فرحتُ في البداية لأنني أدركت أنه سيكون بإمكاني أن آكل ما لذ وطاب من الحلويات والمصّاصات التي سيبيعها أبي في الدكّان وسأتباهى أمام صديقاتي وبنات الجيران. وبالرغم من أني أخذت أحصل عليها بلا مقابل إلا أنّ الثمن كان باهظاً. فقد اقتطع بناء الدكان ثلث الحديقة الصغيرة، وتراكمت الصناديق والعلب بجانب الدكان داخل ما تبقى منها، فضاقت أكثر. ولم يعد بإمكاني أن أركض وألعب فيها بحرية كفراشة مع أختي الصغيرة، شذى.

ولم يساعد الدكان كثيراً في التخفيف من قنوط أبي. كان ذكائي وتفوّقي في المدرسة يفرحانه ويفلحان في زحزحة العبس المقيم في وجهه. لكنه سرعان ما كان يعود إلى إطراقه وإيقاع الحسرات وأنفاس السيجارة الذي اعتاد عليها. وعدته أن أحصل على معدل عال وأدخل كلية الطب وأجدّ كي أصبح طبيبة وعندها لن يضطر إلى أن يجلس في الدكان طوال اليوم. ضحك لأنني استخدمت كلمة «معدّل» التي كنتُ قد سمعتها من أحاديث الكبار وتلقفتها، لكنها كانت أكبر من عمري آنذاك. قبّلني قائلاً: «اللّه كريم بنتي، بعدكي بالابتدائية.»

٦

أحاول أن أتذكّر الآن زمناً لم أكن أشعر فيه بالغربة والاختناق و... الآن، بالتشرّد. يخال إلي أحياناً وكأن خروجنا من بيتنا في الدورة لم يحدث كله مرة واحدة في صيف عام ٢٠٠٧، بل كان سلسلة بدأت قبل سنوات. كأن قطعاً مني كانت تختطف وتسرق، واحدة بعد الأخرى، حتى لم يبق شيء. ففي البداية خطفوا خالي وقتلوه. ومع أنه لم يكن يسكن معنا في نفس البيت، إلا أنه كان في ذاكرتي جزء من حميمية البيت الذي ترك غيابه وحشة فيه. وبعد أن اختطف خالي اختُطِف الفرح من عيني أبي، واستؤصلت حديقتنا الصغيرة من أجل ذلك الدكان. لكن كل ذلك لم يكن كافياً. ربما كان يوسف على حق في نقطة واحدة فقط وهي أن ما حدث بعد ٢٠٠٣ لا يشبه ما حدث قبل ذلك، في ضراوته.

في البداية فرحنا جميعاً بسقوط صدام. وكان أبي أكثرنا فرحاً مع

أنه لم يكن يثق بالأمريكان وبنواياهم. لكنه توهم، مثل الكثيرين، بأن العراق سيتحول إلى هونغ كونغ، كما كانوا يقولون في الأخبار. ولم يكن يتصور بأنهم كانوا سيحولونه إلى ما يشبه الصومال. حوّل أبي الدكان بذكاء بعد شهرين من السقوط إلى محل لبيع صحون الساتيلايت، التي انتشرت بسرعة جنونية بعد أن كانت ممنوعة قبل الاحتلال. وأسرع الناس يشترونها، كما فعلنا نحن، لنطل على العالم الذي حرمنا منه لسنوات طويلة. تحسّنت أوضاعنا الاقتصادية حتّى أن أبي كان ينوي إغلاق الدكان وبدأ يبحث عن شريك ليستثمر معه ويفتح مشرباً جديداً. لكن قبل أن يتبلور مشروعه ويكتمل، وبينما كان يفتش عن المحل المناسب، بدأ الوضع الأمني يتدهور بسرعة صاروخية. شاعت لغة الموت وعلا صوت الانفجارات والمفخخات مهشماً الهدوء الذي ظننّا أننا كنا سنعيشه. تراجع الشريك الذي كان على وشك الاقتناع وقرر أن الوضع لا يشجع على الاستثمار في مشروع مشرب أو أي مشروع. شعر أبي بالإحباط، خصوصاً أن الإقبال على الصحون والإلكترونيات خفّ بعد حوالى سنة من دخول الأمريكان ولم تعد الأرباح كما كانت.

هل كانت لغة الموت أكثر عشوائية في البداية؟ كانت تتوجه بحديثها إلى كل من يعمل مع الأمريكان أو يتعاون معهم ومع الحكومة، لكنها أخذت بمرور الوقت، تنتقي عناوين أخرى محددة ومعروفة لرسائلها. بدأ الرجم بالكلمات في البداية، لكني لم أتصور أنه يمكن أن يتحول إلى رجم بالنار والموت. كان صوت الخطيب دائماً يلعلع كل جمعة عبر مكبّرات الصوت ولسنوات طويلة وهو يحث المؤمنين على التقوى والورع ويهاجم الكفر. ولم أكن آبه كثيراً لأنّي لم أكن أعتقد بأنّي أنا المقصودة، أو أن الرسالة موجهة لي

بالذات كمسيحيّة. ولكن الفوضى التي احتلت كل مكان بعد الاحتلال سمحت لما ظنناه ضجيجاً عابراً في البدء لأن يصبح أعلى من قبل، وأن يستخدم مفردات غريبة مثل: «أهل الذمة» و «جزية». مفردات رددها، وبصوت عال، حاتم الرزّاق، شيخ جامع النور الذي كان بالقرب من بيتنا، والذي بدأ يلقب نفسه بـ«أمير المنطقة» عام ٢٠٠٧. بدأ يصرخ بأنكر الأصوات عبر مكبّرات الصوت قائلاً إن على أهل الذمة أن يدفعوا جزية قدرها ٢٥ ألف دولار شهرياً، أو أن يشهروا إسلامهم علناً في الجامع. كان أبي يضع يده على جبينه كلما سمعه ويقول: «هذا اللي كان ناقصنا. هذا منين طلع؟ من يا زاغور لو طهارة؟ منين نجيبلو خمس دفاتر؟ هاي آخرتها؟ صرنا أهل الذمة؟» لكن أمّي كانت تتشبّث بالأمل فتقول له ولنفسها: «هذا مخبّل. هسه يهوّس كم يوم وبعدين يبطّل.»

لكن المخبّل ظل يردّد كلامه هذا، بل أخذ صوته يعلو أكثر فأكثر. ولو أنه كان لوحده لما كان في ذلك ضرر كثير، فقد يتعب ويسكت. لكن كان هناك من ينصت إليه وينفّذ تعاليمه. فتطوّرت التهديدات الكلاميّة المسموعة إلى رسائل مكتوبة بخط اليد، تم وضعها عند مدخل البيت، أعطت مهلة أسبوع لاختيار واحد من اثنين لمن يريد البقاء: الجزية أو الإسلام. مزق أبي أول رسالة ولم يقل شيئاً عنها لأمي. حاول أن يستفسر عن طريقة للوصول إلى الأمير أو ممثليه والتفاوض معهم أو دفع رشوة، لكنه لم يفلح. وصلت رسالة ثانية بعد انتهاء الأسبوع تكرر التهديد بتوقيع جماعة تسمي نفسها «جيش محمد.» وبعد ذلك جاءت رسائل أبلغ بكثير لنا ولبيوت أخرى بهيئة رصاصات، وتلك الرمانات التي لا تقطف من الأشجار بل التي يصنعها البشر وتسقط من أغصانهم بحركة بسيطة متى شاؤوا

وبغض النظر عن الموسم. أحرقوا كنيسة الآثوريين وهجموا على كنيستنا، كنيسة يوحنا المعمدان، التي كنا نذهب إليها كل أحد وحطموا الصليب الذي كان على قبتها.

ثم انكسر شباك المطبخ ذات ليلة بفعل الرصاصات التي أطلقت. واستيقظنا لنجد كلمة «كفّار» مخطوطة بالأحمر على باب البيت الخارجي. لم تنفع الشكاوى للشرطة أو الاستغاثات التي رفعتها الكنيسة بالنيابة عنّا إلى الحكومة.

أقفل أبي الدكّان وجمعنا ما يمكن جمعه بسرعة وهربنا إلى بيت عمي في البلديات. تحولت غرفة الضيوف في بيتهم إلى مخيم صغير لنا وضعنا فيه حقائبنا وحاجياتنا. نمنا على الأرض هناك لأربعة أشهر. اضطرت أختي شذى لأن تنتقل إلى مدرسة أخرى. لم تتحسن الأوضاع في الدورة، بل تزايدت الهجمات على الكنائس بالمفخخات والهاونات وحوادث اختطاف القسّان. كانت العودة مستحيلة وأخذ الكثير من المسيحيين يسافرون إلى سوريا والأردن. كان عدد من أقارب أمي قد استقروا في عينكاوة في الشمال، وشجعونا على أن نلتحق بهم لأن الأوضاع هادئة هناك. سمعنا بأنه يمكننا أن نقدم معاملة لجوء ديني عن طريق الأمم المتحدة أو الجمعيات التي بدأت تفتح مكاتب لها هناك.

سافر أبي في بادئ الأمر ليستطلع الأوضاع واستأجر شقة صغيرة هناك ثم عاد ليأخذنا معه. سلّم مفاتيح البيت والدكان لجارنا أبو محمد، الذي كان يثق به وطلب منه أن يحاول بيع ما يمكن بيعه من أثاث البيت، وأن يجد مستأجراً أو شارياً. قال لنا إن أبا محمد اعتذر منه وهما يتعانقان وكاد يذرف دمعة، فطبطب أبي على كتفه قائلاً: «شنو هالحچي؟ إنت شِنو ذنبك؟» فرد عليه «ما دِرْنا بالنا عليكم أبو

مها. ما درنا بالنا عليكم. وإنتو المفروض أمانة برگبتنا.» قال أبي له «إحنا ما درنا بالنا عالعراق... كلنا.»

كان علي أن أعود إلى بغداد بعد انقضاء الصيف لإكمال السنوات الثلاث المتبقية لي في كلية الطب. وإلا فسأضطر إلى أن أعيد كل شيء من السنة الأولى وأبدأ من الصفر إذا سافرتُ دون أن أكمل. لكن طريقي سيكون أسهل إذا كنت أحمل الشهادة معي وسيمكنني أن أعادلها بعد سنة أو سنتين حسبما سمعت. شجعني أبي على ذلك وعاد معي إلى بغداد قبل بداية سنتي الرابعة وأقمنا في بيت عمي من جديد. حاول أن يتخلّص من البيت مرة أخرى، لكن لا أحد كان يريد أن يشتري بيتاً في الدورة. فأقفل عائداً إلى عينكاوة ليبحث عن عمل هناك، لكنه لم يوفّق. لحسن الحظ وجدت أمي عملاً في محل لبيع الملابس النسائية وسجّلا أختي شذى في المدرسة لتواصل دراستها. كانوا يعيشون على راتب أمي والمساعدات التي كانت عمتي ترسلها من كندا كل شهر.

٧

احتضنني عمّي وعائلته كما لو كنت ابنتهم. وبالرغم من بعد أهلي عني واشتياقي لهم، إلا أن مرتبة على أرض غرفة الضيوف في بيت عمّي كانت أفضل من الشقّة الضيقة في عينكاوة. كان معظم وقتي مكرساً للدراسة. وباستثناء الجامعة، لم أكن أخرج إلا للذهاب إلى كنيسة مار بثيون الشهيد كل أحد مع بيت عمي، أو لأحضر المحاضرات الدينية والأفلام في السلسلة الشهرية التي أخذت الكنيسة تنظمها أول جمعة من كل شهر لتثقيف الرعية في الفكر المسيحي.

أول محاضرة حضرتها كانت بمناسبة تذكار مار بثيون الشهيد الذي حملت الكنيسة اسمه. سحرتني تفاصيل حياته ومعانيها. كان قد ولد في عائلة مجوسية في منطقة الزاب الأسفل في شمال العراق، لكنه أصبح مسيحيّاً. ثم تنسّك وعاش حياة زهد وتعبد ينهل من الإنجيل. وكان الناس يقصدونه للصلاة والشفاء من الأمراض. بشّر بثيون برسالة المسيح دون خوف من بطش المجوس وكان في الشتاء يهبط من الجبال ليبشر في جنوب العراق. ولأن الكثير من أعيان البلاد اعتنقوا المسيحية على يده أمر قاضي القضاة المجوسي بجلبه مكبلاً. وُضِع في السجن بتهمة السحر لكن أوثاقه سقطت في الليل بأعجوبة فقام يمشي ويشكر اللّه. وسقطت أوثاق كل المسجونين وفتحت الأبواب، فتعجبوا وهتفوا بصوت واحد «عظيم هو إلهك يا بثيون وقوي ومجيد. وطوبى للذين يتكلون عليه.» أمر الحاكم بإلقائه في النهر ليغرق ويموت، لكن المياه توقفت عن الجريان. وعندما أمروا بإخراجه من النهر عادت المياه إلى مجاريها. صرخ الحاكم وأقسم بحياة يزدجرد، ملك الملوك، بأنه سيحرق بثيون ولكن عندما وضعوه في أتون النار خمدت. سيق بثيون إلى مجلس ضم أرباب الدولة فحكموا عليه بما كان يسمى بالميتات التسع، وهي أن يقطع جسده إرباً إرباً على مراحل ولستة أيام. وعندما سيق إلى موضع التعذيب كان يردد ما قاله الرب في إنجيل متى: «لا تخافو الذين يقتلون الجسد، ولا يستطيعون قتل النفس. بل خافوا الذي يستطيع أن يهلك النفس والجسد جميعاً في جهنم.»

كانت المحاضرات تنتهي عادة بنقاش قصير ثم يخرج الجميع بعد ذلك لتناول المرطبات والحلويات في باحة الكنيسة. سأظل أتذكر تلك المحاضرة بالذات لأنني رأيت لؤي فيها لأول مرة،

وكانت الباب الذي دخل منه إلى حياتي. كان مواظباً على الحضور إلى الكنيسة والندوة الشهرية. تلاقت نظراتنا أكثر من مرة وابتسم لي ابتسامة أشعرتني بالراحة بعد أن كان رأسي مليئاً بتفاصيل التعذيب والمعاناة التي تكبدها مار بثيون. تعمّد أن يجلس بجانبي في المحاضرة التالية وسألني من أين أنا بعد أن انتهت. حكيتُ لهُ قصة هروب العائلة وبقائي لإكمال الدراسة. لمحته بعد أسبوع يتجول في أروقة كلية الطب وابتسم ابتسامته تلك عندما رآني. فرح بالصدفة التي جمعتنا وقال لي إنه كان يبحث عن أحد أصدقائه من المدرسة الثانوية. اعترف لي فيما بعد بأنها كانت صدفة «مخطط لها» وأنه لفّق قصة الصديق كي يلتقي بي بعيداً عن الكنيسة والرقباء. دعاني إلى قدح عصير فوافقت وأمضينا ساعتين جميلتين مرتا بسرعة دردشنا فيها وتبادلنا بعدها أرقام المحمول قبل الوداع.

كان يكبرني بأربع سنوات. طويل ووسيم، شعره أسود ناعم يبقيه دائماً قصيراً. عيناه كحليتان تضحكان كلما ضحك. كان قد درس الإنگليزية في قسم اللغات في جامعة بغداد، وعمل مع عمه في آخر سنة من الدراسة في فندق قصر مرجان الذي يملكه. وتدرّج بعد التخرّج حتى أصبح مدير الإدارة فيه وبراتب جيد.

بدأ يحادثني على الهاتف كثيراً وأخذنا نلتقي مرة في الأسبوع. ندردش ونضحك وكان حضوره يفرحني ويشعرني بالهدوء. بعد ستة أشهر فاتحني بموضوع الزواج وطرت فرحاً. سافر إلى عينكاوة لكي يتعرف على أهلي. أعجب والداي بشخصيته وأخلاقه ولم يمانعا في أن يتم الزواج حتى قبل أن أتخرج على شرط أن أكمل دراستي وكان هذا شرطي أنا أيضاً. لم يتجرأ ويحاول تقبيلي على فمي إلا بعد الخطوبة. ارتبكتُ في البداية ولم أعرف ماذا أفعل عندما مس لسانه

شفتي وبدأ يجوس داخل فمي. وكان هو الآخر مرتبكاً أيضاً فتلعثمت القبلات في البداية ثم وجدت إيقاعاً هادئاً.

٨

تم عقد القران في كنيسة مار بثيون التي التقينا فيها وأعقبته حفلة زواج صغيرة في قاعة الفندق الذي كان لؤي يديره. حضر أهلي من عينكاوة ورتّب لؤي الأمور كي ينزلوا في الفندق الذي كان يديره بسعر رمزي. بكت أمي من الفرح وهي تشاهدني ببدلة العرس أقطع الكعكة ذات الطوابق الخمسة. وكان يوسف من بين المدعوين وبارك لنا. لم تكن ظروف دراستي أو عمل لؤي يسمحان حتى بأسبوع عسل، فاقتصر «العسل» على ثلاث ليال في فندق الحمراء عدنا بعدها إلى الغرفة التي جهزها في الطابق الثاني في بيت أهله في زيّونة.

تحسّنت الأمور نسبياً في الدورة بعد سيطرة قوات الصحوة عليها. فعرض علي لؤي بعد خمسة أشهر فكرة السكن في بيت أهلي، ما دام فارغاً وبدون مستأجر وما دام أهلي لا ينوون العودة إليه البتّة. تردّدت بعض الشيء في البداية خوفاً مما قد يحدث، لكنه طمأنني بأن المنطقة آمنة فعلاً وبأن بعض العوائل المسيحية بدأت تعود إليها.

بقيتُ مترددة لكنّي وافقت في نهاية الأمر عندما شاهدتُ بنفسي على التلفزيون تقريراً يؤكد إعادة افتتاح كنيستنا ويظهر الصليب وقد أعيد إلى قبتها. ثم ظهر بعض من أهالي المنطقة المسلمين يحضرون القداس ويجلسون جنباً إلى جنب مع من تبقّى من المسيحيين. تأثرتُ عندما شاهدت البعض منهم يتحدثون للكاميرا يطالبوننا نحن -إخوتهم

المسيحيين- كما سمّونا، بالعودة إلى بيوتنا لأن المنطقة أصبحت آمنة الآن. «لا تتركوها للغربا، تعالوا وگعدوا هنا معزّزين مكرمين. إحنا أهلكم.» قالها رجل وهو يوزع الحلوى في باحة الكنيسة ويخاطب الكاميرا.

دخلت كلماته إلى قلبي وبكيتُ. كما اقتنعتُ بأنّنا سنشعر براحة أكثر عندما يكون لنا بيت بأكمله. وافق والداي على القرار، خصوصاً أمي التي ما كانت تريد لي أن أظل مع أهل زوجي، على الرغم من لطفهم وأنني لم أشك مرة منهم. لكنها ظلت تقول «روحي اطلعي وارتاحي بنتي. أحسن إلكي.» كان أبي قد استفسر من جارنا القديم أبي محمد الذي أكّد له تحسّن الوضع واستقراره. دفع لؤي تكاليف ترميم وإعادة صبغ البيت من الداخل ونقل الأثاث الذي كان قد اشتراه لغرفة نومنا إليه، لكنه وضعه في غرفتي القديمة لأنني رفضت أن ننام في غرفة نوم والديّ مع أنها الأكبر. قلت له إنني أشعر بالحياء.

انتابتني مشاعر ملتبسة وغريبة في الأيام الأولى في البيت. لم أكن قد تعودت أن أكون فيه لوحدي من دون أهلي. هاأنذا أنام تحت سقفه من جديد، مع شريك حياتي الذي أحبه والذي بدأت معه بداية جديدة. كان بعض الحزن يعاودني بين حين وآخر. حلمتُ أكثر من مرة بخالي مخلص الذي كان شبحه يحوم في الحديقة. ولم يملأ الفراغ ويطرد الشعور بالوحشة كلياً إلا الجنين الذي بدأ يتحرّك في داخلي بعد سنة ونصف.

كنا قد اتفقنا على أن نؤجل الأطفال إلى أن أنتهي من الدراسة وكنت حريصة في حساباتي كي أتفادى الحمل. لكن دورتي الشهرية انقطعت وبدأت أعراض الحمل تظهر. توقع لؤي بأن أنزعج لأنني لم

أكن أريد لأي شيء أن يؤخر دراستي. لكنّي كنت أسعد منه بالخبر وواثقة من أنه لن يؤثر على تنظيمي لوقتي. فالطفل كان سيجيء في بداية الصيف حسب تقديرات الطبيبة. وبهذا لن تكون لدي امتحانات أو محاضرات. كما أن حماتي كانت مصرة ومستعدة أن تظل معنا في الشهور الأولى، وتعتني به عندما أكون أنا في المحاضرات. أعد لؤي غرفة أختي الصغيرة، شذى، لتكون غرفة القادم الجديد الذي أظهر السونار أنه ذكر. واتفقنا أن يكون اسمه «بشّار.» واشترت أم لؤي المهد وملابس بشار ووضعتها في غرفته بانتظار مجيئه.

٩

كل شيء كان معداً لكي يصل بشار إلى الدنيا، وتستقبله الأحضان الدافئة والشراشف الناعمة. حتى هو بدا مستعجلاً للخروج من غرفته الصغيرة في جسدي إلى العالم لأنه كان كثير الحركة. لكنه لم يصل إلى غرفته وظل مهده فارغاً. ليس لأنني اقترفت خطأ ما أو أنني لم أعتن بجسدي الذي كان هو قطعة منه على وشك أن تستقل بنفسها. طبقتُ تعليمات الطبيبة بحذافيرها وكنت حريصة على أن يكون كل شيء مثالياً. لكن الذين حسموا مصيره كانوا غرباء لا علاقة لهم به ولا بنا. النهاية دائماً قاسية ومحزنة ولا جواب أو تفسير لها لأنها دائماً تأتي قبل موعدها. لكن ما أقسى أن تنتهي الحياة حتى قبل أن تبدأ؟ وما أقسى أن يسبق الموت الولادة نفسها؟

لا أحد يعرف كيف تسربت السيارتان المفخختان تلك الليلة ومن أين جاءتا بالضبط. لكن الهدف كان واضحاً. استهدفوا شارعنا لأنهم يعرفون بأن معظم من يسكن بيوته هم من المسيحيين. فلم

تكن هناك مؤسسة حكومية أو مركز شرطة أو غيرهما مما يصلح لأن يكون هدفاً استراتيجياً. ظلت منطقة الدورة مستقرة وهادئة لأشهر طويلة وكان مقاتلو ميليشيات الصحوة يحكمون السيطرة على الشوارع والمداخل الرئيسية ويستلمون رواتبهم شهرياً مقابل إعادة توجيه ماسوراتهم وأسلحتهم وإبقائها مصوبة في الاتجاه الصحيح نحو القاعدة والإرهابيين بدلاً من توجيهها نحونا نحن أو نحو الأمريكان أو الشيعة.

انفجرت السيارتان المحملتان بالموت بعد الرابعة صباحاً بقليل وكانت واحدة منهما مركونة أمام بيتنا بالضبط. تهدم جزء كبير من سياج البيت وتهشمت الشبابيك وتطايرت الشظايا وسقطت على السطح وفي الحديقة ووجدت طريقها إلى غرفتنا. كنا قد وضعنا السرير بعيداً عن الشباك فوقع الزجاج على الأرض. كل ما أذكره هو صوت الانفجار وصراخي. عرفت في تلك اللحظة بأنني سأفقد بشّار. بدأ جسدي يرتجف بقوة وكأنه شجرة يعصف بها الموت. كأن الموت نفسه كان يمر بجسدي ويفتش عن ابني ليخنقه في رحمي. احتضنني لؤي وحاول تهدئتي وهو يكرر: «لا تخافين حبيبتي، ماكو شي، ماكو شي، أنا هوني. أنا هوني.» أحسست ببلل الشراشف فظننت بأنني فقدت السيطرة من خوفي. لكنّي أدركت بأنّي كنت أنزف. لا أذكر ما حدث بعدها. قال لي لؤي إنني صرخت كالمجنونة لنصف دقيقة ثم فقدت الوعي وهمدت. عندما وصلنا إلى المستشفى كان قلبٌ واحد فقط ينبض في داخلي بدلاً من اثنين.

لماذا كان على بشّار أن يكون الثمرة التي ينتزعها الخوف من غصنها قبل أن تنضج. لماذا كان يجب أن تسقط ميتة لا يلتقطها أحد؟ هكذا، من الرحم إلى اللحد حتى بدون المرور بالمهد. دون

أن يرضع من ثدييّ اللذين امتلأ من أجله. دون أن يرتدي الملابس الجميلة التي اشتريناها له. أو ينام في الغرفة التي كانت تنتظره.

١٠

عندما فتحت عينيّ رأيت وجه أمي التي كانت جالسة بجانبي تمسك بيدي. قبلتني وقالت «لا تنقهرين بنتي. اللّه ياخذ واللّه يعوّض. أهم شي سلامتكي.» ثم ظهر وجه الطبيبة المحجبّة والممرضات. جاء لؤي وقبّلني على جبيني وبعده أبي. ثم تكاثرت الوجوه. وجوه الآخرين التي شعرت بأنها بدأت تحاصرني وهي تحدق فيَّ وتردد ذات العبارات السخيفة. كانت أمي قد جاءت بسرعة من عينكاوة، هي وأبي وشذى، لتكون معي، لكن أبي وشذى عادا بعد ثلاثة أيام لكي تعود شذى إلى دراستها.

أقسمتُ ألا تطأ قدماي الدورة وألا أعود أبداً إلى ذلك البيت المشؤوم. بعد خروجي من المستشفى عدنا إلى السكن في الغرفة التي سكنا فيها في البداية في بيت أهل لؤي. سمع يوسف من أمي التي أصرت على أن تظل في بغداد لتعتني بي في فترة النقاهة عمّا حدث. اتصل بها على الهاتف ليطيّب من خاطرها وليطلب رقمي كي يحادثني. كان لطيفاً واعتذر لأنه لم يزرني في المستشفى لأنه لم يعرف في الوقت المناسب. عندما زارته أمّي قبل أن تعود إلى عينكاوة لتسلم عليه وحدّثته بالتفصيل عن محنتي، عرض عليها أن نسكن في الطابق الثاني الذي حوّله إلى شقة عام ١٩٩١، والذي كان بلا مستأجرين منذ أشهر. شاهدتْ بنفسها غرفة النوم الكبيرة والحمام والمطبخ وأكّد لها هو بأننا سنأخذ راحتنا ولن يزعجنا أحد، فهناك

مدخل خاص للشقة ودرج جانبي يسمح لنا بأن نخرج وندخل براحتنا.

لم أتردّد كثيراً فبالرغم من طيبة أهل زوجي إلا أنني كنت أشعر بالاختناق من الزيارات المتكررة والضوضاء وكنت أفضل العزلة والهدوء. تحمّس لؤي بعد أن زرنا بيت يوسف لنرى بأنفسنا الطابق الثاني، خصوصاً أنه كان قريباً من عمله حتى أنه يمكن أن يذهب مشياً على الأقدام. رفض يوسف أن يناقش مبلغ الإيجار أو أن يستلم أي شيء مقدماً وقال: «بعدين، اللّه كريم.» لكنه ظل يرفض أن يأخذ شيئاً منا حتى عندما ترك لؤي مظروفاً بداخله مبلغ. وقال لي إنني إذا طبخت له بين الحين والآخر فذلك سيكون أثمن من أي إيجار. وهذا ما كنت أفعله بالإضافة إلى المساعدة في ترتيب وتنظيف البيت، كما أن لؤي كان يشتري الكثير من الفواكه والحاجيات.

١١

لكنني لم أعد من المستشفى. هذا ما قالته أمي.

لم أعد كما كنت. كأن جزءاً منّي مات ودفن مع الجنين. ومع أنني لم أرتد ثياب الحداد إلا أن قلبي ارتدى ثياب الحزن. واستقرت غيمتان سوداوان خلف عيني لم تبخلا في ترجمة أحزاني كلما نطقت. كان كل يوم بالنسبة لي مثل ماراثون إجباري يجب أن أقطع مراحله الطويلة المرهقة. كنت أفي بواجباتي كطالبة، فأدرس وأحضر المحاضرات. وكنت أعتني بلؤي وكنت لطيفة معه.

لكن جسدي كان في عالم آخر، بالرغم من أننا كنا ننام معاً في نفس السرير. كأنه كان يزور ذلك الجزء الذي مات مني ليبكيه فأبكيه

أنا أيضاً. كنت أنكمش كوردة خائفة كلما حاول لؤي أن يداعبني. أدركت بأنّي تغيرت كثيراً حتى أنني اعترفت له ذات مرة قائلة: «وردتك ذبلت» عندها عانقني وقال، كما كان يقول دائماً: «إنتي وردتي.» لكنه طمأنني وهو يقبل جبيني: «لا، وردتي تتعب، بس ما تذبل.»

١٢

أصبحتُ شديدة الحساسية لأي ضجيج بعد الحادث وكان أخف الأصوات يرعبني. ارتحتُ بعد أن انتقلنا إلى الطابق الثاني في بيت يوسف بسبب الهدوء الذي كان يغمره. وأصبح بإمكاني أن أنعم بالهدوء أكثر بعد رحيل أمي، بعد أن اقتنعت بأني تماثلت للشفاء، جسدياً على الأقل، وأن بإمكانها هي أن تعود إلى عينكاوة إلى عملها ولتكون مع أهلي. على عكس شارع بيت أهل زوجي، كان شارع بيت يوسف فرعياً هادئاً لا تمر فيه السيارات إلا فيما ندر. خصوصاً أن إحدى نهايتيه كانت مغلقة بحواجز كونكريتية ضخمة لا تسمح إلا بمرور المشاة. ونادراً ما كنت أسمع صوتاً من الطابق الأرضي في ساعات النهار عندما لا أكون في المحاضرات، باستثناء المقامات التي كان يوسف يستمع إليها بين حين وآخر، أو صوت الباب المؤدي إلى الحديقة الخلفية وهو يفتح ويغلق. في المساء كان صوت الفضائيات التي يشاهدها يوسف يتسلق إلى الطابق الثاني ليتطفل على عزلتي، يرافقه أحياناً صوت يوسف وهو يجادل المذيعين ويعترض على ما يقال. لكن ذلكِ لم يكن يزعجني كثيراً لأنّي كنت أضع سدادات الأذن التي أعطتني إياها الطبيبة في البداية لأتمكن من النوم،

والتي اعتدت عليها فيما بعد وأخذت ألجأ إليها أكثر فأكثر كي أشعر بالسكينة. حتى أنني أخذت أضعها في أذنيّ حتى عندما أكون في طريق الذهاب إلى الجامعة والعودة منها، لكي أسكت ضجيج السيارات والبشر. كدت أموت ذات مرة عندما عبرت الشارع وأنا غارقة في أفكاري. سمعت ما يشبه زعيقاً قوياً ورأيت امرأة على الرصيف المقابل تضع يدها على فمها ورجلاً يرفع يده وهو ينظر باتجاهي. عندما التفتّ إلى الخلف كانت هناك سيارة بيضاء توقفت على بعد متر مني وكادت تدهسني. أخرج السائق المشتعل غضباً ذراعه من شباك السيارة وبدا أنه يصرخ بي. رأيت شفاهه تضرب بعضها البعض وسمعته وهو يصرخ كالمجنون من بعيد: «هاي وين ماشية بنص الشارع؟ شنو عمْيَة؟ ما مكفّيچ الرصيف؟» شعرت بالذنب واعتذرت منه مرتين وأنا أشير بيدي، لكن بدا أن «العفو» كانت خافتة لم يسمعها هو أو أي شخص آخر. أشار بسبابته إلى رأسه وهو يمر بسيارته من جانبي.

لم أكن مستعدة للتخلي عن السدادات. اكتشفتُ أن الحياة اليومية تصبح أكثر رحمة، وأقل عنفاً وعبثاً، عندما تشبه مشاهد الأفلام الصامتة. لكن حتى صوت شهيقي وزفيري كان يؤرقني أحياناً وأنا أحاول النوم. وكنتُ أتمنى لو تسكت رئتاي ويكفّ قلبي عن الدمدمة.

١٣

روحي وجدت ملاذاً في عالم آخر أطل من نوافذه على آلام القديسين وأحزان العذراء وابنها. فكلما كنت أنتهي من كتب الطب،

كنت ألجأ إلى إنجيلي الذي ورثته عن جدتي، نانا، وإلى كتابي «كنز العبادة» و «الشهر المريمي» اللذين وجدتهما في غرفة حنّة، عندما نظفتها ذات مرة من الغبار الذي تراكم فيها. كنتُ أحب يسوع ومريم العذراء منذ الصغر، لكنني بعد الحادث شعرت بأنني اكتشفت أبعاداً أعمق لشخصية العذراء، وأدركت ما تمثله للموجوعين. أدمنتُ الاستماع إلى تراتيل فيروز. فكنت أضع السماعات على أذنيّ، أو أتركها ترتل في البيت بصوت عال عندما أضطر لإخراج السدادات من أذني لأنها بدأت تسبب حساسية وألماً من كثرة الاستعمال. أغمض عينيَّ وأرى صوت فيروز جوقة ملائكة يلملمون مزق روحي ويخيطونها. ثم يحتضنوني ويصطحبونني معهم إلى بستان الأحزان الأزلية حيث يتبلل كل شيء بالدموع. ولا أشعر بحاجة لأن أقول شيئاً لأحد أو لنفسي. ففيروز هي التي تحكي وجعي وتترجم الشوك الذي يكلل قلبي وقلب كل شيء.

«أنا الأم الحزينة وما من يعزّيها،
فليكن موت ابنك حياة لطالبيها،
أم يسوع قد بكت فأبكت ناظريها،
لهفي على أمة قتلت راعيها،
ناح الحمام على تشتت أهليها...
تعالوا إلى مريم أمّه نعزّيها»
«واحبيبي واحبيبي، أي حالٍ أنت فيه؟
من رآك فشجاك، أنت أنت المفتدي،
يا حبيبي أي ذنب جمّل العدل بَنيه؟
فأزادوك جراحاً ليس فيها من شفاء،

حين في البستان ليلاً سجد الفادي الإله،
كانت الدنيا تصلي للذي أغنى الصلاة،
شجر الزيتون يبكي وتناديه الشفاه،
يا حبيبي كيف تمضي؟ أترى ضاع الوفاء؟»
...

«حبيبي حبيبي يا ولداه خاطبني!
كيف أراك عريان ولا أبكيك يا إبني؟
أوجاعك حرقت أكبادي،
آلامك خرقت فؤادي،
أحياة لوالدتك يا ولداه بعد موتك؟»

وكنت أسمع، بشار، يناديني من رحم الموت:

«يا مريم أمي، نحيبك يزيد أدمعي
ارحميني واسكتي، أتركيني وارجعي
يا أبتاه لماذا، تتركني بوجعي؟
خنقتني الحسرات وتمزقت أضلعي.»

وبالرغم من صبر لؤي وورعه، إلا أن صبره نفد ذات مرة عندما عاد ووجدني استمع إلى تراتيلي وأنا مغمضة العينين. هو أيضاً كان يحب الاستماع إليها قبل عيد القيامة وبين حين وآخر، ولكن ليس كل يوم، كما قال، فدمدم: «شنو هاي يا مها يا عيني؟ ما كافي؟ يعني كل يوم عدنا جمعة حزينة؟»

استغرب ولم يفهم كيف ولماذا أظل غارقة في حزني كل هذا الوقت، خصوصاً أن بشّار لم يولد وأنني يمكن أن أحبل من جديد. هذا ما قاله لأمي ولا أدري لماذا لم يقله لي بشكل مباشر. هو أيضاً شعر بالحزن لأنه كان ابنه ودمه ولحمه. لكنه لم يفهم عدم قدرتي على العودة إلى الحياة الطبيعية. اقترح علي أكثر من مرة أن أعمل موعداً مع طبيبة نفسانية، لكنّي كنت أرفض بحزم وأقول له «ماكو داعي» أو «شنو، قابل تخبّلتو؟»

بحثتُ في الغوغل عن معلومات عن حالات تشابه حالتي فقرأت في أكثر من مكان بأن الإسقاط يسبب أحياناً كآبة قد تستمر لثلاث سنوات وقد تظل حتى بعد ولادة طفل آخر. بعثتُ له الروابط فاعتذر منّي بعدها وظننتُ بأنه فهم أخيراً. لكنّه عاد وذكرني بعدها بشهر بأن آلام المسيح كانت تنتهي ويجيء سبت النور بعد الجمعة الحزينة ثم يعقبه أحد القيامة. وقال إنني أحبس نفسي في جمعة الآلام. أستمع إلى «أنا الأم الحزينة» و «واحبيبي» و «قامت مريم» فقط وأكبس على الزر لأعود إلى بداية القرص الممغنط. «ليش ما تخلّين فيروز تبشركي بالقيامة وبالأمل؟» جربتُ مرة أن أستمع إلى بقية التراتيل لكنها لم تكن تعجبني مثل البقية. شعرت بأنني غريبة فيها:

«أيتها العذراء النقية افرحي وأيضاً أقول افرحي
لأن ابنك قد قام من القبر في اليوم الثالث
استنيري يا أورشليم الجديدة لأن مجد الرب قد أورق
إفرحي الآن وتهللي أورشليم
وأنت يا نقية يا والدة الإله
اطربي بقيامة ولدك

المسيح قام من بين الأموات ووطئ الموت بالموت
هذا هو اليوم الذي صنعه الرب فلنفرح ولنتهلل به»

ابن اللّه كان يقوم من الموت كل عام، لكن ابن الإنسان، ابني أنا، غرق في الموت حتى قبل أن يولد، ولن يقوم منه أبداً. فصار الرحم قبراً والجسد مقبرة. مقبرة أزورها دون أن أتحرك.

١٤

وبدأتُ أزور بستان الزيتون حيث صلى المسيح صلاته الأخيرة. فكنتُ أسجد ليلة كل جمعة لأصلي لمدة ساعة وأقرأ ما يقوله المسيح لي في كتاب «كنز العبادة.» كنتُ أشاركه في أحزانه الشديدة التي كابدها في بستان الزيتون وهو يحاول أن يلطّف المرائر التي شعر بها حين تخلّى عنه رسله الذين لم يقووا على السهر معه ساعة واحدة.

أصدق الآن ما قالته لي جدتي ذات مرة عندما كنت طفلة. قالت لي إن الزيتون كان ثمراً حلواً لكن طعمه صار مرّاً بعد تلك الليلة التي بكى فيها المسيح وحيداً وسقى أشجار الزيتون بآلامه. عندما كنت طفلة كنت أحاول أن أتخيل كيف أن شجرة الزيتون تلك شربت أحزان المسيح وأوجاعه فسكنتها المرارة. كنت أتساءل كيف أصبح كل زيتون العالم مراً؟ هل حكت تلك الشجرة وجع المسيح لبقية الأشجار في ذاك البستان؟ هل تنفست الأغصان الدموع التي أصبحت ندى؟ أم أن جذور الشجرة همست لجذور جاراتها؟ وكيف انتشر الخبر في كل بساتين الأرض؟

١٥

أحمل رضيعي الذي يبكي من العطش. لا شيء حولنا سوى الصحراء. فوقنا غيمة واحدة تدفعها الريح ويقول لي صوت، كأنه قادم من السماء: اركضي وراء الغيمة، فستلقي أحمالها بعد قليل! اركضي وراءها ليشرب ابنك! أركض، عارية وحافية، لكن الغيمة لا تقف ولا تلقي بأحمالها. أركض وأركض لاهثة ورضيعي يبكي. تسرع الغيمة أكثر وأفشل في اللحاق بها. تختفي في الأفق ويظل رضيعي يبكي. أهدهده وأسقيه بدموعي لكنه لا يكف عن البكاء. أستيقظ غارقة في دموعي ورضيعي ليس معي.

كنت أستيقظ من كوابيسي هذه مبللة بالدموع، فأقوم من سريري وأنزل الدرج بهدوء وأدخل غرفة حنّة وأستلقي على فراشها فأشعر بالسكينة وأنام. دخل يوسف عليّ ذات مرة وأنا نائمة. لا بد أنه سمعني أنزل. نظر إلي ثم خرج ولم يقل شيئاً بعدها عن الموضوع ولم يسألني لماذا أنام هناك.

١٦

عندما لا أكون في بستان الزيتون وأجد فسحة بين ساعات الدراسة كان الفيسبوك هو نافذتي الأخرى على العالم. فكنتُ أفتحها بين حين وآخر لأتابع أخبار أختي، شذى، والأقرباء الذين توزعوا المهاجر. أنظر إلى صورهم الجديدة التي يلتقطونها في المناسبات والزيارات المتبادلة وأقرأ تعليقاتهم. أبحث عن شذى وأدردش معها إلكترونياً، أو على السكايب عندما تكون على

الإنترنت في المحل القريب من بيت أهلي في عينكاوة لأن البيت كان بلا إنترنت. أسألها عن دروسها وعن الأوضاع في عينكاوة وعن والدي. كنتُ أعرف ما يحدث بشكل عام، فأمي تهاتفني بصورة منتظمة. لكنّي أحب أن أسمع نسخة أخرى غير النسخة الرسمية من أخبار العائلة التي تكرر فيها أمي بأن كل شيء على ما يرام. لا انفجارات ولا مفخخات والكهرباء لا تنقطع. راحة بال وهدوء بانتظار معاملة الهجرة. ثم يسلّم عليّ أبي بعجل ويسألني عن لؤي ويطلب مني أن أنقل سلامه له وليوسف. أخبار شذى كانت أكثر واقعية. كنتُ أشتاق إليها وأشعر بأنها بحاجة لي. لم تكن شذى سعيدة في السنة الأولى بعد الانتقال إلى عينكاوة. وجدتْ صعوبة شديدة في التأقلم مع مدرستها الجديدة وانخفضت درجاتها فلم تعد متفوقة كما كانت في بغداد. كانت دائمة الشكوى من الوحدة التي تعيشها، ومن أنها بلا صديقة حقيقية، لأن الصديقة الوحيدة التي كسبتها في أول صيف سافرت إلى السويد بعد أن اكتملت معاملة هجرة عائلتها. جو البيت كان كئيباً أيضاً ومملاً وخانقاً لأن ثلاثتهم ينامون في غرفة واحدة. بابا يشاهد الفضائيات طول الوقت ويصر على أن يشاهد الأخبار ولا شيء غيرها، رغم أنها دائماً الأخبار نفسها، كما تقول شذى. يدخّن دون أن يقول الكثير سوى توبيخه لها عندما تتأخر في مقهى الإنترنت. آخر مرة دردشنا فيها أخبرتني عن مشادة كلامية حدثت بين أمي وامرأة مسيحية من أهل عينكاوة اتهمت مسيحيي بغداد بأنهم رفعوا أسعار الإيجارات بقدومهم إلى عينكاوة، وبأنهم يزاحمون أهلها على كل شيء، حتى الهواء. «حتّى المسيحيّين يفرّقون» قالت. كنتُ أطلب منها أن تصبر وأقول لها إن كل شيء سيصبح أحسن عندما نهاجر

كلنا إلى كندا، وإنها ستتمتع بحرية أكثر هناك وتكون لها غرفة لوحدها.

على الفيسبوك عثرتُ بفرح على رسالة وطلب صداقة من إسراء، صديقتي التي تركت الجامعة قبل سنتين بعد أن تزوجت أحد أقربائها الذي عاد من أستراليا لينتقي زوجة من وطنه الأصلي، بعد أن طلق زوجته الأسترالية. فسافرت لتعيش معه هناك في سيدني ولم تتمكن من إكمال دراستها لأنهم لم يعترفوا بتحصيلها من العراق، فاضطرت لأن تعيد الكرة وتبدأ من الصفر.

على الفيسبوك عثرتُ أيضاً على مجموعة «العراق الجميل» التي يتبادل أعضاؤها صور العراق وأغانيه في ما يسمونه زمان الخير. كانت الصور جميلة ونادرة، تذكرني تعليقات الأعضاء تحت كل صورة جديدة توضع على جدار المجموعة بكلام يوسف عن الماضي ووقوفه على أطلاله. ذلك الماضي الذي كان كل شيء فيه جميلاً لا تشوبه شائبة. لكن الغريب أن الماضي عند هؤلاء لم يكن ينتهي أو يبدأ عند النقطة نفسها. فمنهم من يعتبر أن قدوم البعثيين في ١٩٦٣ والوحشية التي قتل بها عبد الكريم قاسم كانت نهاية الزمن السعيد. ومنهم من يعتبر صعود صدام في ١٩٧٩ بداية النهاية. وهناك من يمد بساط الزمن السعيد إلى ١٩٩١ لأن الحصار هو بداية نهاية العراق. وهناك آخرون ينتهي عندهم الزمن في ٢٠٠٣. والغالبية منهم يحنون إلى زمن الملكية وينشرون صور العائلة المالكة معتبرين الانقلاب العسكري والوحشية التي قتلت بها العائلة المالكة بداية الشر والسقوط إلى الهاوية. وأتساءل في سري كلما قرأت تحسراتهم على زمن الملكية: ألم يذبح الآشوريون في ذاك العهد الملكي السعيد؟ ألم يتم تهجير اليهود العراقيين وطردهم من بيوتهم وبلدهم الذي عاشوا فيه

بين ليلة وضحاها؟ ألم يكن الفقر مستشرياً؟ والعهود التي تلته ألم تكن مليئة بالمذابح والمقابر الجماعية للأكراد والشيعة؟

تختلط البدايات والنهايات. كل يبكي على عراقه السعيد، لكنني كنت أشعر وأنا أنظر إلى كل تلك الصور والتعليقات التي تصاحبها بأنني لا أمتلك زمناً سعيداً أحن إليه. زمني السعيد لم يكن قد ولد بعد. ربما أكون سعيدة هناك، بعيداً عن العراق. بعيداً عن الموت والمفخخات وكل هذا الحقد الذي صار يسري في الشرايين. سنترك البلد لهم ليحرقوه ويمثلوا بجثته وسيذرفون دموعهم عليه بعد فوات الأوان الذي فات.

١٧

أيقظني لؤي بقبلة على جبيني قبل أن يذهب إلى عمله. سألته عن يوسف وما حدث ليلة أمس، فقال إنه بدا حزيناً، بالطبع، لكنه لم يكن غاضباً جداً. اعتذرت منه على ما حدث فقبّلني على خدي مرة أخرى وقال: «ما يخالف، بس اعتذري منّو هوّ، لازم أروح هسّة.» اتفقنا على أن نلتقي عصراً في البيت للذهاب إلى الكنيسة مثل كل أحد. ذكرته بأن اليوم يصادف ذكرى وفاة حنّة.

غسلتُ وجهي وارتديت ملابسي على عجل ونزلت إلى الطابق الأرضي لأعتذر من يوسف قبل أن أذهب إلى دوامي في الجامعة لكنه كان قد خرج مع العلم أن سيارته كانت مركونة. انتظرت عودته لنصف ساعة لكنني اضطررت للذهاب بعدها. كنت على وشك الاتصال به، لكنّي قررت أن من الأنسب الاعتذار وجهاً لوجه.

لم أستطع أن أركز على محاضرة التشريح وبقيت أسترجع ما

حدث الليلة الماضية وأشعر بالذنب. أحب يوسف وأحترمه كثيراً لكنني لا أرى العالم ولا يمكن أن أراه كما يراه هو. هو لا يعرف معنى ألا يكون للإنسان بيت يعود إليه وأن يشعر بأنه مطارد كفريسة أو مرشح لأن يكون فريسة في مستقبل قريب. ولا يعرف ولن يعرف أبداً معنى أن تفقد امرأة ابنها. ولا يدرك بأن المسلمين لا يريدوننا بينهم، ويعاملوننا كأننا غرباء أو أجانب. غريب أنّه يشاهد الفضائيات ويسمع كل ما يقال، لكنّه يصر على أنها غيوم عابرة.

كان الأستاذ يحاضر عن زراعة الأنسجة والخلايا مختبرياً ويعرض أمثلة تظهر التقدم الهائل الذي حصل في العقود الأخيرة. قبل سنوات، كنت أشعر بالفرح والزهو إذا تعلمت شيئاً عن جسد الإنسان، هذا المكوَّن المعقّد. كنت أفرح لأن اللّه لم ينعم علينا بالجسد فقط، بل وهبنا نعمة العقل كي نفهم جسدنا ونعالجه ونحمي الحياة التي نفخها اللّه فيه. وكنت أفخر لأنني سأكون طبيبة. وما زالت هذه الاكتشافات تثير إعجابي، لكن الفرح غاب ليجلس محله شعور باللاجدوى والعبثية. ننفق سنوات طويلة في القاعات والمختبرات، ونتبحر في الكتب لنتعلم كل هذه التفاصيل الدقيقة التي راكمها بشر آخرون منذ مئات السنين كي نعتني بالجسد ونبعد عنه الألم والموت. ثم يأتي آخرون، لا يعرفون شيئاً وقد يكونون أميين، وبضغطة زر أو حركة زناد، يمزقون الجسد. الدم في كل مكان والبلد صار مشرحة كبرى. لكن التجارب تجرى على الأحياء. هذا علم الأحياء الرائج هذه الأيام.

في لحظات اليأس المطلق هذه كنت ألجأ إلى يسوع وأقول في قلبي: سامحني يا يسّوع. أعرف بأنك قلت «أحبّوا أعداءكم» لكنّي لا أستطيع أن أحبهم. لا أستطيع. لا أفهمهم ولا أستطيع أن ألجم

الحقد والتقزز اللذين أشعر بهما كثيراً. خصوصاً عندما أرى صور المعممين الغاضبين، ذوي الحواجب الغليظة مثل قلوبهم، أو أراهم يجعرون على الفضائيات. لا يمكن أن يكون في قلوب هؤلاء حب أو رحمة. هذا ما خطر لي حينما هاجمني وجه أحدهم وهو يبرز من ملصق كان موضوعاً على أحد الجدران وأنا في طريق العودة. كنا ننفر من صور صدام في كل مكان والآن تتكاثر صور هؤلاء مثل الأميبيا. أو ربما هو ذات النسيج الملوث الذي أعيد استنساخه وزرعه. سامحني يا رب على هذه الأفكار.

كانت العودة إلى البيت بطيئة واستغرقت ضعف ما تستغرقه عادة بسبب استنفار أمني غير عادي ونقاط سيطرة إضافيّة. بدت السيارات كأنها سلاحف متعبة تزحف. تعبتُ من تدرجات اللون الرمادي الكئيب التي تخنق بغداد. أريد أن أعيش في مدينة تزينها أشجار عالية، وتمشي فيها بشوارع نظيفة ينساب فيها المرور. مدينة تتنفس، ويتنفس من فيها الحياة، في حدائق عامة لا تخنقها غابات الكونكريت وأكوام الزبالة. كان المحمول في حقيبتي والسدادات في أذنيّ، فلم أسمع رنينه عندما حاول لؤي الاتصال بي. اتصلتُ به بعد أن عدت إلى البيت. قال إنه سيتأخر قليلاً في القدوم إلى الكنيسة لأن هناك وفداً كبيراً نزل في الفندق ولن يستطيع أن يترك العمل في الوقت المناسب. رجوته ألا يتأخر كثيراً لأنه قداس مهم ليوسف وأن يتّصل به ليعتذر. سألني إن كنت قد اعتذرت منه، فقلت له إن سيارته في البيت لكنه ليس هنا ويبدو أنه ذهب إلى الكنيسة مشياً.

الذبيحة الإلهية

١

«ولمّا جاء يسوع إلى نواحي قيصريّة فيلبُّس، سأل تلاميذَهُ قائلاً: «من يقولُ الناسُ إنّي أنا ابنُ الإنسان؟» فقالوا: «قومٌ: يوحنّا المعمدانُ، وآخرون: إيليّا، وآخرون: إرمْيا أو واحدٌ من الأنبياءِ» قال لهم: «وأنتم، من تقولون إنّي أنا؟» فأجابَ سمعانُ بطرسَ وقال: «أنتَ هو المسيحُ ابنُ اللّه الحيّ!» فأجابَ يسوع وقال لهُ: «طوبى لك يا سمعانُ بنُ يونا، إنَّ لحماً ودماً لم يُعْلِن لكَ، لكنَّ أبي الذي في السماوات. وأنا أقولُ لكَ أيضاً: أنت بطرس، وعلى هذه الصخرةِ سأبني كنيستي، وأبوابُ الجحيمِ لن تقوى عليها.»

قرأ الأب ثائر المقطع بصوته الرخيم وبعد أن أنهى القراءة رفع الإنجيل، المغلّف بقماش مخملي أحمر وُشِيَت حوافه بخيوط مذهبة وتوسطه صليب، من الحامل الخشبي الذي كان يرتاح عليه. قبّله ثم مسّه بجبينه ثم أغلقه وأعاده. وقال للمصلّين: «فلنصلِّ يا أحبتي كي يعم السلام في بلدنا الحبيب وننعم به جميعاً. ولندعو إلى اللّه كي تتشكّل حكومة جديدة تحافظ على سلامتنا وتحمينا. صلّوا معي «أبانا الذي في السموات. . .»»

وقف الجميع وبدأوا يصلون بصوت عال وعندما وصلوا إلى

«أعْطِنا خبزنا» اقتحمت أصوات إطلاق رصاص الكلمات التي كانوا يرددونها. ارتبك البعض في أول الأمر وسرت همهمة، لكن الغالبية استمروا في الصلاة، فقد تعودوا على أصوات إطلاق الرصاص والانفجارات في السنين الأخيرة. قال الأب ثائر مطمئناً: «ماكو شي، لا تخافون.» لكن الإطلاقات استمرّت وازدادت قوتها وكثافتها وكأنّها تقترب من باب الكنيسة. بدأ البعض يتلفت حوله ووراءه وسرت بلبلة. طلب الأب ثائر عبر الميكروفون من الشباب الذين يقفون بالقرب من باب الكنيسة أن يغلقوه، ففعلوا. تصاعد بكاء بعض الأطفال. ثم هزّ انفجار عنيفٌ الكنيسة كلها. أخذ الأب وسيم الذي كان واقفاً إلى يسار المذبح يشير إلى جمع المصلين كي يسرعوا بالذهاب إلى غرفة الكهنة التي كان بابها خلف المذبح ليختبئوا هناك. اندفع عدد كبير منهم بسرعة نحوه. أما الذين لم ينتبهوا إلى إشارته في خضم الفوضى، فقد ظلوا واقفين في أماكنهم كأن الرصاص حوَّلهم إلى تماثيل حجرية. اتجه البعض الآخر إلى الأبواب الجانبية، لكنها كانت مقفلة كالعادة، لأنها تؤدي إلى المقبرة التي تحيط بجانبي الكنيسة.

ارتبك يوسف وظل واقفاً لا يعرف ما الذي يمكن له أن يفعله. لمح مها تندفع من أقصى اليسار نحو المذبح. همّ باللحاق بها وناداها مرتين لكنها لم تسمع. لأن الأبواب الثلاثة التي في المدخل كانت قد انفتحت على مصراعيها. ودخل رجال يحملون رشاشات وبدأوا بإطلاق الرصاص بكافة الاتجاهات وعلى كل شيء. انبطح يوسف أرضاً مثل البقية.

٢

لم تدرك مهما كم مر من الوقت وهي جاثمة على الأرض في الظلام. كانت تعرف بأن الموت قريب جداً وأنه قد يجيء في أي لحظة. فكّرت بلؤي وبوالديها وبشقيقتها. ليتها تسمع صوتهم مرة أخيرة وتودعهم. لكن هاتفها ليس معها. كان في حقيبتها اليدوية التي سقطت منها وهي تركض نحو المذبح. لو كانت حقيبتها معها لوضعت السدادات في أذنيها. فكّرت بيوسف الذي لم تعتذر منه. كانت الكنيسة مليئة عندما وصلتها ولم تجد مكاناً إلا في أقصى اليسار. بحثت عن يوسف أثناء القداس وهي متأكدة بأنها رأت رأسه قرب المقدمة حيث يجلس الرجال عادة. لكنها لم تره عندما بدأ الهجوم. أيكون قد نجح في الوصول إلى غرفة الكهنة واختبأ هناك خلف المذبح؟ هل قتلوه أم أنّه جاثم على الأرض في مكان ما هنا مثلها يفكّر بمصيره وينتظر الموت الذي اقترب الآن؟ قرّبت المسبحة التي كانت في يديها من شفتيها وقبّلتها. ستطلب النجاة له ولها وللجميع. ستطلب النجاة من سيدة النجاة التي لا تخيب رجاء أحد. تلت الصلاة التي كانت قد قرأتها مئات المرّات في كتاب صلاة الشهر المريمي حتى حفظتها:

«يا قديسة مريم، صلّي لأجلنا، يا والدة اللّه، صلّي لأجلنا، يا أمّاً مصلوبة، يا أمّاً موجوعة، يا أمّاً باكية، يا أمّاً حزينة، يا أمّاً متروكة، يا أمّاً منفردة، يا أمّاً ثكلى، يا أمّاً مطعونة بالحربة، يا أمّاً متجرّبة، يا أمّاً متضايقة، يا أمّاً مصلوب قلبها، يا أمّا مغمومة، يا ينبوع البكاء، يا جبل الحزن، يا صخرة الثبات، يا مرْسى الاتّكال، يا ملجأ المتروكين، يا ترس المظلومين، يا غالبة الكفرة، يا معزّية

المساكين، يا دواء الموجوعين، يا قوّة الضعفاء، يا ميناء الغارقين، يا سكون الرياح، يا مُرهِبة الخبثاء، يا كنز المؤمنين، يا عين الأنبياء، يا مِسْنَد الرُسُل، يا إكليل الشهداء، يا نور المعترفين، يا معزّية الأرامل، يا فرح القديسين، صلّي لأجلنا يا أمّ الموجوعين.»

بعد أن أنهتها صلّت «أبانا الذي» و«السلام لك» ست مرّات وفي منتصف المرة السابعة سمعت دوي انفجارين قويين هزّا الكنيسة. تبعتهما زخّات رصاص لا تنقطع وصراخ ووقع أرجل. كانت تنتظر الموت لكنها سمعت صوتاً يصرخ «اللي يگدر يگوم يگوم. خلّي يگوم. گولوا اللّه» لم تتحرك. سمعتْ وقع خطى تقترب منها ثم شعرت بيدٍ تهزّها فخافت وانكمشت. لكنّ الصوت قال لها «لا تخافين أختي، إحنا أخوانكم العراقيين.» رفعت رأسها فرأت جندياً مدججاً بالسلاح يرتدي خوذة وفوقها جهاز صغير يشبه الكاميرا يشع منه ضوء أحمر صغير. ساعدها على النهوض ومشى معها نحو باب الكنيسة وهو يمسك بيدها. كان هناك آخرون يرتدون زياً مماثلاً يحومون داخل الكنيسة ويرافقون الناجين إلى الخارج.

عندما خرجت إلى الباحة كان هناك العشرات من رجال الجيش المدججين بالأسلحة والمسعفين الذين بدأوا يستعدون للدخول مع سدياتهم ليحملوا الجرحى. كانت سيارات الإسعاف والأمن تقف خارج البوابة الرئيسية التي تجمع بالقرب منها المئات يراقبون المشهد والكثير منهم يبكي ويصرخ. وكان لؤي أحد الواقفين، لكنه لم يرها لأنه كان يقف بعيداً. كان قد هرع إلى الكنيسة حالما سمع بالخبر ووقف ينتظر مع الجموع دون أن يتمكن من الدخول لأنهم لم يسمحوا لأي مدني بالاقتراب بالرغم من أنه قال لهم إنّ زوجته داخل الكنيسة وبأنها لا ترد على الهاتف.

نظرت مها حولها وسألت الجندي الذي كان يمسك بيدها ويعاونها على المشي والذي بدت تقاطيع وجهه أكثر وضوحاً الآن «وين عمّو يوسف؟» سألها «منو يوسف أختي؟» فأجابته «عمّي، چان جَوَّة ويّانا» فطمأنها قائلاً «راح نطلّعهم كلهم أختي، بس تعالي ويّاي.» وسلمها لأحد المسعفين الذي سألها إن كانت مصابة أو تشعر بأي ألم، فقالت له «لا، ما بيَّ شي، بس أريد أروح للبيت.»

بدا وكأن شعرها شاب أثناء تلك الساعات القليلة. كانت طبقة من غبار الجص المتساقط بفعل الانفجارات قد غطت سواده فبدت وكأنها أمها. غسلت شعرها تلك الليلة في الحمام وفركت بقع الدم التي غطت ساقيها وهي تبكي.

ستظل تبكي.

٣

بعد ثلاثة أيام اتّصل بها مراسل قناة عشتار الفضائية وطلب منها أن تدلي بشهادة عن الهجوم لسلسلة كانت القناة تعدها بعنوان «حوارات مع الناجين». خافت في البداية وسألته من أين حصل على رقم هاتفها، لكنها اطمأنت عندما قال لها إن الكنيسة هي التي أعطته إياه وأردف قائلاً «أنا مسيحي أختي.» فوافقت. حاول لؤي أن يقنعها بالعدول عن ذلك قائلاً إن الظهور على التلفزيون قد يسبب مشاكل هما في غنى عنها. كما أن استعادة الأحداث ستغرقها أكثر في دوامة الكآبة وتعيدها إلى أجواء المذبحة. لكنها كانت مصمّمة. قالت له إنها تريد أن يعرف العالم كله حقيقة ما جرى.

كانت ترتدي قميصاً أسود بأكمام طويلة وبنطلوناً أسود وغطت

شعرها بإيشارب أسود. بدا وجهها شاحباً، وألقت نوبات البكاء بظلالها تحت عينيها اللتين تقلصتا أكثر بفعل ضوء «الفلاش» القوي الذي كان المصوّر قد وضعه على الحامل بجانب الكاميرا. جلست على الكرسي الجلدي في غرفة المعيشة. أعطى المنتج لؤي الفرصة ليجلس بجانبها، لكنه رفض وجلس على كرسي مجاور دون أن يظهر في اللقطة. طلب منها معد البرنامج أن تسرد ما حدث بطريقة عفوية. واقترح أن تتكلّم بالعامية لا بالفصحى لتكون أقرب إلى المشاهدين. استجمعت شجاعتها وأخذت نفساً عميقاً وبدأت تحكي. اضطرت للتوقّف أكثر من مرة أثناء التسجيل لتمسح دموعها، لكنّها قالت ما كانت تريد قوله وصورة يوسف بالأبيض والأسود بين يديها.

٤

«إسمي مها جورج حداد. أنا طالبة بكلية الطب بجامعة بغداد. كنتُ واحدة من الرهائن اللي كانو بكنيسة سيدة النجاة، يوم ٣١ تشرين الأول. اليوم اللي صار به الهجوم الإرهابي. إحنا عادةً نروح للكنيسة كل أحد، أنا وزوجي. بس صِدْفت هذاك اليوم ما قدَر ييجي، لأنه كان عنده التزام وتأخّر بالشغل. القداس خلص حوالي الساعة خمسة وربع. وكل شي كان طبيعي إلى هذيك اللحظة. القس، أبونا ثائر، قال خلّي نصلي من أجل السلام ببلدنا، ونطلب من اللّه إنّه تتشكل حكومة جديدة ويعم السلام والاستقرار بالبلد. وبس بدينا نصلّي «أبانا الذي» سمعنا صوت إطلاق رصاص جاي من خارج الكنيسة، بس كان خفيف. أبونا ثائر طمنّا وقال «لا تخافون، ماكو شي.» كملنا الصلاة، بس صوت الرصاص صار كثيف وأقوى

من قبل. فالقسّان قالوْ للشباب الواقفين ليورا يسدون الباب الرئيسي مال الكنيسة. فجأة صار انفجار كلّش قوي هزّ الكنيسة كلها. القس الثاني، أبونا وسيم، قام يصيّح ويطلب من الناس يروحون ويدخلون بغرفة القسّان اللي ورا المذبح. صارت فوضى وهوسة والكل بدو يركضون. وأنا خفتُ طبعاً وركضتُ، بس كنتُ بعيدة عن المذبح. فلمّن وصلتُ لقيتُ الغرفة مليانة ناس. ماظل بها مكان. وحتى قسم كانو منبطحين خارج الباب. بهاي الأثناء قمنا نسمع صوت الطلقات داخل الكنيسة، قريب كلّش من عدنا وكلّش قوي. فأنا هم انبطحتُ بالأرض ورا المذبح وغطيتُ راسي وسويتُ نفسي ميتة. الإرهابيين دخلوْ علينه فجأة، اقتحمو الكنيسة بسهولة وكلّش بسرعة، خلال ثواني يعني. فد شي كلّش غريب. ما أعرف شلون بهالسهولة ؟ وما أعرف العدد المضبوط شقَدْ. بس من صرنا بنهاية الكنيسة يم المذبح كان أكو أربعة همَّ اللي وصلو قريب يمنا. وجنسياتهم عربية، بس واحد منهم، اللي كان أقرب شي من المذبح، كان عراقي. عرفته من لهجته طبعاً. واحد منهم سوري والإثنين الباقين ما أعرف بالضبط، بس لهجاتهم مو عراقية.

أول ما دخلو قامَوْ يضربون طلقات على الناس اللي منبطحين على جوانب الكنيسة وقتلو عدد كبير منهم. أول شخص قتلوه قدام عيني هو الشمّاس، نبيل. إجا واحد من الإرهابيين عليه وما أعرف شقال، فالشماس دفعهُ بإيده من كتْفَه، هذاك رأساً ضربهُ بطلقة براسه ووقع. بعدين طلع القس، أبونا وسيم، وقفْ قريب من المذبح وين جماعة الجوقة علمود يحاول يهدّي الوضع. فقالِلهم «أتركو المصلّين، وشتريدون، آني أنطيكم، تعاملو ويّايّ آني. أخذوني رهينة» ضربو طلقة براسه. بعدين ضربوْ أبونا ثائر، بس ما مات

رأساً. انصاب ووقع بالأرض. ظل يصلّي بصوت عالي يقول «بين يديكَ أستودعُ روحي.» جا واحد منهم وضربه بطلقتين سكتّو.

وكانو قيِضربون عشوائي وبكل الاتجاهات وما خلّو شي. ولما شافو الصليب عبالك انجنو. قامو يصيحون علينا «إنتو كفرة، إنتو كفرة، إنتو تعبدون الصليب.» ضربو على الصور اللي فوق المذبح واللي عالجوانب والثريات المعلّقة ووقّعو قسم منها. العراقي كان واقف قريب منّي. كنتُ أسمع صوت الطلقات لمن يرمي. فكنت أتوقع بأي لحظة إنه يقتلني. كلما كان يرمي، الطلقات الفارغة كلها كانت توقع يمي. كان يضرب ويظل يقول «يا اللّه ثبتني بالإيمان! سامحني يا اللّه! سامحني يا اللّه!» معظم الشباب قتّلوهم. ودخلو على غرفة القسّان اللي ورا المذبح وضربو بيها رمانات. وانفجرت طبعاً ووراها قمنا نسمع الصياح والبكي.

كان أكو وحدة مَرَة مجروحة وقَتِتْلوى من الألم فتوسّلت بالعراقي قالتْ له: «اكتلني، اللّه يخليك! لا تخليني أتعذّب.» فجاوبها قال لها: «لا، راح أخلّيچ تتعذبين. تتعذبين هنا، وتتعذبين بنار جهنّم اللي رايحة عليها.» ظلت تقلّه «جبان! اكتلني يا جبان يا كافر.» بس هو ما ضربها إلى أن سكتت وماتت.

أنا كنتُ بكل لحظة متوقعة أموت وإنه راح يضربني رصاصة لو برجلي لو ببطني. بعدين اللي لهجتهُ سوريّة قال للعراقي: قوّم وحدة خليها تِجي تحكي بالموبايل. أنا كنتُ بس قاأصلي بقلبي، ومسوية نفسي ميتة ما قأتحرّك. بس هو الظاهر كان يعرف أنا عايشة، فضربني برِجله وقاللي «گومي» وهدّدني «إذا ما تحچين هسّة أضربچ طلقة.» كنتُ مرعوبة طبعاً. مشيتُ مسافة كم متر إلى وين ما كان الثاني

واقف. هذاك انطاني الموبايل حتى أحكي وكان لازم الرمانة بأيده ومخلّيها قريبة يهددني بيها. كان هو متّصل بقناة البغدادية وعالخط ويّاهم. قالّي: «قوليلهم إنّك وحدة من الرهائن، ودولة العراق الإسلامية تقول لازم تطلقو سراح خواتْنَا المسلمات اللي بمصر وإخواننا المجاهدين اللي بالسجون و إلا كلنا نموت. وقوليلهم إحْنا ما فينا شي.» فقلتُ هالحكي، بس ما قلتُ إحنا مابينا شي. وبس خلّصت أخذ التلفون مني وقالي «روحي ارجعي.» الكنيسة كانت مليانة جثث والمصاطب كلها متكسرة. رجعتُ يم العراقي اللي رفع السلاح عليّ وقالّي: «رِجعي هناك بمكانچ! فرجعتُ وظليتُ لازمة المسبحة أصلي.»

طبعاً ما أعرف شقد كانو جايبين عتاد وشلون قدرو يدخّلونهُ كلهُ؟ بالساعتين الأولى الطلقات اللي عدهم خلصت. والعراقي قال للباقين «ظلّت عندي بس اربع طلقات.» جاوبه واحد منهم قالّو «ما يخالف استعمل الرمانات.» فبين فترة وفترة كانو يستعملون رمانات والأرض تنهزّ بينا بعد ما يضربوها. بالآخر، بعد فترة، واحد منهم قال الظاهر الجيش العراقي راح يداهم الكنيسة. فاتّفقو بيناتهم إنّه بس تدخل القوات العراقية يفجّرون نفسهم علمود نموت إحنا وهمَّ والقوات العراقية. فأنا بعد ما سمعت هذا الحكي عبالي انتهى أمرنا وراح نموت كلنا. وما كنتُ أتوقع أبداً إنه راح أعيش وأطلع من هاي المحنة. ظليتُ أصلّي وأدعي. بس بقدرة اللّه ومريم العذرا عشتُ. الأضوية كلها انطفت لأنه كثير ثريات وقعت على روسنا وبعدين بآخر ساعة الكهرباء كلها انقطعت. والكنيسة صارت ظلام دامس، بس كان أكو شمعة شمعتين عالمذبح. وبالآخر بصعوبة كان الواحد يقدر يشوف أي شي. بعدين سمعنا صوت انفجارات قوية من برا.

الظاهر الجيش العراقي كان قيضرب قنابل صوتيّة. فراح واحد من الإرهابيين وذب الرمانات الباقية على الغرفة اللي كان القس الثالث بها. وبعدها الظاهر واحد منهم فجّر نفسه. وبعدين الثاني وراه مباشرة. الصوت كان كلش عالي يعني أذاني قامت تصوفر وما قِمِتُ أسمع زين. بالآخر بقوْ بس آخر اثنين، العراقي اللي كان يمي وواحد لاخ. راح العراقي مسافة أربع أمتار وفجّر نفسه بالحزام الناسف وحسّيتُ أشلاء من لحمهُ وقعت على ظهري وعلى رجليّ. أنا كن غطيتُ راسي بإيديّ وقا أطلب من اللّه ومن مريم العذرا يخلصوني. بعدين دخلوْ جماعة مكافحة الإرهاب وطلّعونا. بس عقبيش؟ بعد ما ماتو تلترباع الموجودين؟ قرايبنا اللي إحنا ساكنين عنده هوني ببيته راح. اللّه يرحمه. وهاي صورتهُ. إنسان مسالم مسكين ما يستاهل. السؤال هو ليش انتظرو كل هذا الوقت؟ لو تحركو أسرع كان أنقذو كثير ناس من اللي كانو ينزفون واللي ما كان لازم يموتون. وكان عدد الضحايا يكون أقل بكثير. فأنا أحمّل الحكومة العراقية المسؤولية كاملةً. شلون قدرو هذولي يدخّلون كل هذا العتاد ويعبرون نقاط السيطرة؟ وين الحماية والأمن اللي يحكون عليه؟ أكيد أكو تواطؤ وتقصير وإهمال. أو إحنا حياتنا ما إلها قيمة بالنسبة إلهم. وإلى متى إحنا نظل بهالوضع المزري هذا؟ هذا مو أول هجوم، ومع الأسف ما راح يكون آخر هجوم علينا. حتى على عائلتي أنا شخصياً. هاي ثالث مرة. إحنا أصلاً تهجّرنا من الدورة قبل تلث سنين من ورا الطائفية والتهديدات وبعدين مرة لاخ. تركنا بيتنا وهسّة متهجْولين بين عينكاوة وبغداد. إحنا مُسْتهدفين. يريدون يطلعونا من البلد؟ يقولون علينا إحنا صليبيين وإحنا متعاونين ويّ الاحتلال وكذا. وهذا كلّه كذب وتزوير للتاريخ ما إله أساس. إحنا

ماجينا عالدبابات من الخارج مثل كل هذوله اللي يزايدون على وطنيتنا. إحنا ما يدعمنا أحد. لا إيران تدعمنا ولا السعودية ولا أمريكا. وأمريكا ما ساعدتنا. بالعكس، وضعنا صار أسوأ. إحنا بالآخر ما عدنا غير اللّه وإيماننا بس. وإحنا ماجينا من برا. إحنا موجودين هوني صارلنا قرون. وخلي يسمعون الناس. التاريخ يشهد وحتى الآثار تشهد. أديرتنا وآثارنا موجودة. ومو بس بالشمال. بكل مكان بالعراق. حتى بالنجف أكو دير وآثار كنائس وبكربلا وبالناصرية أكو أديرة. إحنا ما كنا يوم طامعين بحكم أو شي. ومو إحنا اللي سرقنا وقتلنا وحرقنا. إحنا بس نريد نعيش بسلام. ديننا دين السلام. وهذا كل اللي أريد أقوله.

٥

ظل جسد يوسف مسجى على أرض الكنيسة لأكثر من أربع ساعات، قبل أن يُحمَل إلى الخارج بعد تخليص الرهائن وإخلاء الجرحى. كان محاطاً بأشلاء بشرية وبقطع الزجاج المكسور والغبار والجص وببركة صغيرة من الدم الذي ظل ينزفه. داس أحد أفراد قوة مكافحة الإرهاب الذين دخلوا الكنيسة على أصابع يده اليسرى بالخطأ فهشّم عظام ثلاثاً من أصابعه. كان يحمل كاميرا صغيرة معه ويصور العملية، وظل يطلب من الرهائن المحرّرين أن ينظروا إلى الكاميرا وأن يقولوا «گولوا اللّه.» حمّل الفيلم بعد أيام على اليوتوب مع معلومات عن قائد العملية وأغنية حماسية للترويج للفرقة الذهبية التي أنقذت الرهائن.

لم تظهر جثة يوسف في الفيلم. ولم يشعر بأي ألم عندما

انكسرت أصابع يده. فواحدة من الرصاصات الأربع التي كانت قد اخترقت جسده قبل ساعات كانت قد عثرت على قلبه وأسكتته. وقبل أن يسكت قلبه كانت شفتاه قد همستا بصوت خافت «يا مريم» لكنه لم يكمل جملته. ظلت عيناه مفتوحتين حتى وهما تغرقان في ظلام الموت.

* * *

ملاحظة

تتقاطع أحداث الرواية مع حادثة الهجوم على كنيسة النجاة في بغداد عام ٢٠١٠. لكن النص وشخصياته من نسج الخيال، وأي تطابق أو تشابه في الأسماء غير مقصود.

أعمال أخرى للمؤلف

- إعجام (رواية) (دار الآداب، ٢٠٠٤)
- وحدها شجرة الرمّان (رواية) (المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠١٠)
- ليل واحد في كل المدن (شعر) (دار الجمل، ٢٠١٠)

ترجمات إلى الإنكليزية:

- محمود درويش، في حضرة الغياب (دار آرشيبيليغو، ٢٠١١)
- سعدي يوسف، أيهذا الحنين، يا عدوّي (مختارات) (دار غري وولف برس، ٢٠١٢)

هذا الكتاب

رؤيتان متناقضتان لشخصيتين من عائلة عراقية مسيحية، تجمعهما ظروف البلد تحت سقف واحد في بغداد. يوسف، رجل وحيد في خريف العمر، يرفض أن يترك البيت الذي بناه، وعاش فيه نصف قرن، ليهاجر. يظل متشبّثاً بخيوط الأمل وبذكريات ماض سعيد حيّ في ذاكرته. مها، شابة عصف العنف الطائفي بحياتها، فشرّد عائلتها وفرّقها عنهم لتعيش لاجئة في بلدها، ونزيلة في بيت يوسف. تنتظر مع زوجها موعد الهجرة عن وطن لا تشعر أنه يريدها. تدور أحداث الرواية في يوم واحد، تتقاطع فيه سرديات الذاكرة الفردية والجمعية مع الواقع، ويصطدم فيه الأمل بالقدر، عندما يغيّر حدث حياة الشخصيتين إلى الأبد. تثير الرواية أسئلة جريئة وصعبة عن وضع الأقليات في العراق، إذ تبحث إحدى شخصياتها عن عراق كان، بينما تحاول الأخرى الهرب من عراق الآن.

رسمة الغلاف: ألفريدو بيكوندوا

